لعنة الهجيني

لعنة الهجيني

رواية

شروق إلهامي

لعنـــــة الهجينـــــي

روايـــــة

اسم الكاتبة: شروق إلهامي
تدقيق لغوي: عبدالله أسامه
تصميم الغلاف: عبير محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٥٨٤٥ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهـــداء

إهداء إلى زوجي "أحمد" رفيق دربي وسندي ودعمي في شتى الاتجاهات، ذي القلم الذهبي المتواري بين سطوري، والأنامل الرشيقة المؤنِّقة لكلماتي، والفكر العبقري الذي لطالما أبهرني منذ بداية تعارفنا... بشدة أشكرك.

إهداء وشكر إلى أمي جذوة الثقافة في حياتي، ودليلي نحو كلّ نجاحٍ ورفيقتي الدائمة في عالم الكلمات، وأبي الداعم الصامت الطيب الذي فاجأني بإيمانه بي رغم كلّ إحباطاتي وانكساراتي التي أفقدتني يومًا ما إيماني بنفسي، وأخويّ "خلود وعلي" الصغيريْن الطموحيْن واللذين في غفلةٍ مني وجدتهما كبرا وصارا وسامًا أتشرّف به.

إهداء إلى فريدتي الصغيرة "فريدة"، فاجأني دخولك لحياتي بمشاعر لم أتخيّلها بداخلي، وكنتِ بهجةً لي ولكلِّ من حولي قبل أن يدركنا وعيك، دمتِ لنا في صحةٍ وسعادةٍ يا صغيرتي وأتمنى أن تكون كلماتي سبيلك الأول للأدب والخيال والحب، وأن أصبح لك الأم التي تتمنينها.

إهداء إلى صديقاتي اللاتي فرقت الأيام والمسافات والمشاغل والإحباطات وبياتي الشتوي على مدار العام بيني وبينهن، ولكن ظلت رغم ذاك المشاعر الجميلة والذكريات الأجمل تملأ أرواحنا وذاكرتنا، ولا نتذكر بعضنا بعضًا سوى بالخير والحب.

إهداء إلى كلّ قارئ ينتظر كتاباتي في شغفٍ ويعطي لي بشكلٍ غير مباشرٍ حافزًا على الاستمرار في الكتابة في زمنٍ عبثيّ اختلط فيه الغث بالثمين.

وشكر خاص لكلّ من ساهم في وصول تلك الرو اية للشكل الحالي بدءًا من دار مير للنشر التي -رغم خذلانها لي- كانت مسابقتها هي ما حفزني لبداية تلك الرو اية دون أن أعلم مسارها بعد، ومرورًا بحماس وترقُّب القراء على الشبكة العنكبوتية الذين حمّسوني لإكمالها جزءًا بعد جزءٍ رغم أنهم لم يقرأوا منها سوى جزء صغير، ثم مسابقة دار ليلى كيان كورب التي لم تفز بها الرو اية في صورتها الأولية غير المنقحة ولكن الدار أعلنت أنها كانت من أفضل عشرة أعمال قدمت للمسابقة، ونهاية بسلسبيل ودعاء الوقدي وعم فتحي الذين قرأوا بحماس ونبهوني لما سقط مني سهوًا وكانوا خير وقود لمسيرتي الأدبية... شكرًا لكم جميعًا.

(١)

فتحت الباب بهدوءٍ حتى لا أزعج أهلي النائمين، لم أضئ النور، دخلت وأغلقت الباب برفق.

- أهلًا بالغالي.

باغتني الصوت فجأةً في الظلام، إنه صوت أبي، فتحت النور فالمواجهة في الظلام ليست أمرًا محببًا لي، فوجدته جالسًا على الكرسي ويتّضح من جلسته أنه كان ينتظرني من فترةٍ طويلة، وللأسف خرج صوتي مهزوزًا قليلًا:

- أهلًا أبي.. ما سبب سهرك هكذا؟

- أنتظرك.

- خيرًا أبي.. أهناك شيء؟

وقف أبي وهدوء ملامحه وصوته يبدوان كالهدوء الذي يسبق العاصفة.

- أين كنت؟

- مع أصدقائي.

- أين كنت وليس مع من؟

- عادي.. كنا في وسط البلد.

- وسط البلد.. جميل.. ثم؟

- ثم ماذا؟

- صبري ليس طويلًا يا أحمد لأشد الكلمات منك كلمةً كلمة.. هل يعجبك حالك؟

- لندع الكلام للصباح يا بابا.

ويبدو أنها كانت القاضية.. علا صوت أبي بغضبٍ قائلًا:

- صباح؟ وهل تستيقظ أنت بالصباح؟ ستدخل غرفتك الآن تفتح جهازك الملعون وتجلس على النت لبعد الفجر وتنام لتصحو آخر النهار تأكل وتجري على أصدقائك الضائعين ولن أرى وجهك.

كان طبيعيًا نتيجةً لهذا الانفجار أن يستيقظ كلّ من في البيت، وأظن جيراننا أيضًا استيقظوا. ثوانٍ ووجدت معنا كلًّا من أمي التي استيقظت لتعرف سبب هذا الضجيج، وأخواي اللذين خرجا من فراشهما ليشاهدا الأخ الأكبر في مذبحة المماليك تلك. وبالطبع أنا صامت لأن أيّ كلمةٍ أو أيّ عذرٍ أو تعليلٍ للحالة أو لأسلوب حياتي لن يكون سوى جدل فارغ سيزيد من حالة غضب أبي، وسيطيل من زمن هذا الموقف السخيف؛ فقررت أن أصمت و أنا أدعو الله أن ينتهي ذلك سريعًا... ويبدو أن السماء كانت مفتوحةً والله قد قبل دعائي فدفع بملاكه الساكن في بيتنا لينهي الأمر.

- أمي: صلِّ على النبي يا أبا أحمد.. الساعة الثالثة فجرًا ولن نوقظ الجيران على صوتنا، تعال لننام والصباح رباح.

ثم نظرت لي قائلةً بصوتٍ هادئ:

- و أنت نم الآن فأنا أريد أن أكلمك في موضوع غدًا لذا لا سهر اليوم.

نظرت لأبي المحدق فيّ بغضبٍ وأومأت دون كلماتٍ وتوجّهت لغرفتي غير مبالٍ بأحد.

أبي محق و أنا أُقدِّر غضبه ولكني غير قادرٍ على فعل شيء، لقد ذهبت لمئات الشركات وهناك جملة يبدو أنها محفوظة قد سمعتها منهم جميعًا: "أسبوعين وسنتصل بك لنحدد لك موعد المقابلة". وقد صدق البعض منهم والباقي لا.. كما أن من قابلتهم كانت مقابلاتهم عقيمة عابثة، لا أدري أهي للبحث عن موظفين حقًّا أم مجرد وسيلةٍ لاستغلال الوقت بمرح لهم؟ أنا....

ترررن ترررن... ترررن ترررن... ترررن ترررن

طال رنين الهاتف ولم يرد أحد، يبدو أنهم ناموا، فرددت أنا:

- آلو.. من معي؟
- .....
- خير!
- .....
- ولم يكسر أحد الباب؟
- .....
- حسنًا سنأتي حالًا.

أغلقت الهاتف وطرقت باب غرفة أبي بقوةٍ حتى سمعت صوته يسمح لي بالدخول، ولكني تلعثمت قائلًا:

- أبي.. عمتي آمال.
- ما بها؟
- هناك دخان يخرج من بيتها.
- دخان؟ من قال هذا؟

- جارتها اتصلت وقالت ذلك.

قام أبي بسرعةٍ وبدأ يُبدِّل ملابسه وأمي تشاهده في ذهول صامت.

- ولم يطرق بابها أو يكسره أو يتصل بالمطافئ أحد؟
- جارتها تقول أنها كانت تتكلم معها في الهاتف من ربع ساعة، وفجأة عمتي قالت لها: "أنقذيني أنا أحترق"؛ فجرت على شقتها وطرقت كثيرًا دون رد، وزوجها ليس بالبيت ليكسر الباب وهي لن تطرق باب أحد في تلك الساعة المتأخرة، ولكنها اتصلت بالمطافئ قبل أن تتصل بنا لكن لم يأت أحد.
- إذًا تعال معي.

من حسن الحظ أني لم أُبدِّل ملابسي بعد، ركبت السيارة وقدتها أنا لضعف نظر أبي ليلًا، وقدت بأسرع ما يمكنني دون أن أصل لحد الخطر.

عمتي آمال امرأةٌ في الخامسة والخمسين من عمرها، عندها بنتان زوّجتهما وسافرا مع زوجيهما، إحداهما لأحد بلاد الخليج والأخرى لليبيا، أما ابنها فأنهى دراسته واستغل بيع أبيه للبيت الذي يملكونه في الشرقية وأخذ المال وسافر ليعمل ويعيش بألمانيا، ويبدو أن أولادها كانوا الرابط الأخير بينها وبين زوجها؛ فبعد سفر بناتها طلقها وتزوج من أخرى صغيرة السن، ولكن ترك لها الشقة مع التزام بمبلغ مالي جيد شهريًا كنفقةٍ لها. ويبدو أن تلك وسيلته لشكرها على عمرها معه، هو على كلّ حالٍ رجل ثري نوعًا ما، والشقة والمبلغ لن يكلفاه شيئًا، ولكنه تركها للوحدة والندم والذكريات والأحزان.

وصلنا لأسفل المبنى الذي تسكن به فتركنا السيارة صفًا ثانيًا، وركضنا إلى شقتها بالدور الرابع، وكان من الواضح أن المطافئ لم تأت بعد.

باب شقة عمتي من الطراز القديم جدًّا الذي به جزء زجاجي خلفه أسياخ حديدية ملتوية في شكل زخرفي، والجزء غير الخشبي هذا كان ليتبينوا منه من الطارق (قبل اختراع العين السحرية) لذا كسرت الزجاج ومددت أصابعي بصعوبةٍ شديدةٍ بين الحديد لفتح الباب من الداخل بالضغط على المزلاج، كنت سأكسر الباب لكن أبي منعني لتجنب الضجيج في هذا الوقت، فعلت ما أمر به رغم حيرتي واعتراضي ففتحت الباب ودخلنا.

كان هناك دخان أبيض كثيف يخرج من غرفة نومها مع رائحةٍ غريبةٍ لم أشم مثلها من قبل. دخلنا الغرفة ولكن الدخان كان يمنع رؤية أيّ شيء.. ظل أبي يناديها وفتحت أنا الشباك لأخرج الدخان.. ومرت نصف دقيقة حتى بدأت ملامح الغرفة تظهر وأذهلنا ما رأيناه حينها.. كانت الغرفة فارغة.. ولا يوجد أثر للنيران إلا على الفراش وغطائه المحترق وعدة احتراقات خفيفة على الكرسي بجانبه كالاحتراقات التي تنتج من سقوط عقب كبريت أو سيجارة على قماش. غطاء الفراش كان معظمه محترقًا وهناك تراب كثير عليه والجزء غير المحترق منه مرتفع قليلًا عن الفراش كأنه يخفي شيئًا أسفله.

اقتربت ببطء وحذر من السرير مشدوهًا من غرابة أن يحترق غطاء فراش دون أن تأكل النيران الغرفة أو على الأقل السرير.

خرج أبي من الغرفة ليبحث عن عمتي في باقي الشقة بعد أن اطمأن أن عمتي ليست في الغرفة التي حدث بها الحريق.. ولكنني ظللت في مكاني أتأمل الفراش.. انتابني فضول أن أعرف ماذا يخفي الجزء غير المحترق من الغطاء

تحته.. مددت يدي بهدوء وحذر وكل ما يجول برأسي أن هناك شيئًا متأهبًا تحته ينتظر حتى ينقض على من يكشفه.

اللعنة على أفلام الخيال العلمي المرعبة التي أشاهدها، رفعت الغطاء بسرعة و أنا أقفز للخلف حتى أتحاشى هذا الشيء الذي يتأهب لي.

ولكن.. لم يحدث شيء.. فقط تناثر بعض التراب الذي كان على الغطاء نتيجة لرفعي له بسرعة. اقتربت من الفراش بهدوء و أنا أنظر بذعر لما كان مختبئًا تحت الغطاء..

كانتا ساقين متجاورتين غير متصلتين بجسد ما.. ساقين ذواتا ركبتين محترقتين وباقيهما لم يمسسه خدش.. ساقين يرتديان جوربي عمتي المزركشين اللذين لا تنام بدونهما ولطالما ضحكت عليها وعليهما حين كنت أنام عندها.

تركت نفسي لأسقط على أقرب كرسي بعد أن وهنت ساقاي حتى عن إيقافي. ماذا يحدث؟ ما هاتان الساقان؟ أتلك دعابة سخيفة ما؟ لو كانت كذلك كيف أتت عمتي بهاتين الساقين والدخان الأبيض والرائحة الغريبة تلك؟ وإن لم تكن، أحقًا عمتي احترقت والباقي منها فقط ساقاها؟ أكان آخر كلماتها "أنا أحترق"؟ هل يمكن أن يحترق أيّ شخص ويعبأ بأن يخبر أحدًا تليفونيًا بذلك بدلًا من الانشغال بإطفاء ذاته والصراخ؟ نعم هي كانت مدخنة مؤخرًا وربما سقطت السيجارة على الفراش فأشعلته ولكن ليس بتلك السرعة يحدث الأمر، والساقان أعلاهما محترق فقط وباقيهما سليم

فكيف؟ كما أنه ليس بتلك السرعة تصل لدرجة التفخُّم تلك. تفخُّم! أهذا التراب الذي أثرته برفع الغطاء هو رماد عمتي؟

لم أتمالك نفسي من الذعر ولم أناد أبي لأخبره عن ظنوني وهواجسي تلك ولكن فاجأني هو بصوته قائلًا:

- أحمد، عمتك ليست هنا.. تعال بسرعة.. أمك اتصلت تقول أنها تختنق.

(٢)

جالسين في العزاء الثاني وصبي صغير يوزع القهوة علينا لتعب أمي، مر أسبوع على وفاة عمتي.. ساقاها أو آخر ما تبقى منهما ألصقت فيها في الأوراق الرسمية تهمة الانتحار حرقًا، وتم تجاهل مهاتفة الجارة التي تلقت استغاثة، وتشكيكي لهم في أمر الانتحار حرقًا الذي لم يحدث بتلك السرعة وبهذا الشكل من قبل، حتى الطبيب الشرعي الذي حاولت التقرب منه أكثر لأفهم كان مندهشًا، ولكن لعدم وجود أدلة على أيّ شيء سوى الاحتراق بالإضافة إلى سجائرها. تم الأمر بهذا الشكل.

أبي يجلس في زاوية الغرفة ولا يسلم حتى على المعزين فأنوب عنه وأعتذر لهم متحججًا بأنها كانت أخته المقربة، والحقيقة أنه لم يكن له أخوات سواها، وكان يزورها كلّ شهر ويتصل بها أسبوعيًا فقط كما يستلزم الواجب في نظره. هو صامت من اليوم الذي تلا زيارتنا الليلية لها. يومها رحل أبي مسرعًا لينقذ أمي بعد أن طلب الشرطة، وتركني مع الساقين اللتين نهبته لهما فلم يتقبل أنهما لعمتي، واتصل بالشرطة ليحققوا في الأمر وتركني في الشقة خوفًا من أن يسرق الشقة أحد بعد أن كسرنا زجاج بابها. عدت للغرفة أتأمل مجددًا وأنا غير واثق مما رأيت -أو هذا ما آمله- ومثلما توقعت الأسوأ لمشاهدتي الخيال العلمي تعلمت الحذر من الأفلام البوليسية، شخص عاطل وفاشل مثلي ماذا يتوقع أحد منه سوى تحقيق نفسه في صورة أبطاله المفضلين المحبوسين خلف الشاشة؟

لطالما بقيت عند عمتي في صغري فهي قريبتي الوحيدة من جهة أبي، والوحيدة ككل التي تسكن العاصمة مثلنا.. ومؤخرًا كانت ملاذي كلما طردني أبي أو قمت بمصيبة ما فاختبأت عندها.. لذا لم يكونوا يقلقون عليّ في البيت قط حين أختفي لعدة أيام.

كان سعد ابنها كأخي وصديقي المفضل حتى هرب من جحيم البطالة الذي أعيشه يوميًا، وتركني بوعد أن يساعدني لألحق به يومًا ما، ويبدو أن هذا اليوم لم ولن يأتي أو أن "سعد" نسي وعده.

أدري أن الشرطة ستأخذ وقتًا حتى تأتي وسينحونني جانبًا لمعاينة الغرفة، وفي النهاية سيتذكرونني فقط للأسئلة التي لا تنتهي؛ لذا دخلت المطبخ وفتحت درجًا معينًا أدري أن عمتي كانت تضع به قفازاتها البلاستيكية التي كانت تستخدمها أثناء التنظيف، وعدت للغرفة بسرعة وبدأت في التنقيب بحرص بحيث لا أترك بصمات أو أحرك الأشياء الأساسية من أماكنها؛ حتى لا أؤثر في نتائج التحقيق أو أطأ بقدمي على رماد عمتي الحبيبة، فضولي كان أقوى مني، وما حدث أغرب من أن يصدقه عقل، ومؤكد لن أراه في حياتي مستقبلًا، وعلى كلّ حال كان ذلك سدى فوضعت القفازات في جيبي حتى لا تكون دليلًا مضللًا يقود لي، وجلست في انتظار الشرطة.

الأيام التي تلت ذلك أكد الطبيب الشرعي أن الساقين لعمتي وأعلن أنها ماتت محترقة، ثم بدّل السبب من حادثة غير مقصودة لانتحار بعد أن علم من الجارة أنها كانت تشكو الوحدة وتتمنى الموت، بعد فترة جاء زوج عمتي،

استلم الشقة دون أن يأبه بما حدث، و أقام عزاءً لم يحضره سواي أنا وبعض الجيران، وهو نفسه لم يحضره كأنه قد أنهى به كلّ التزاماته نحوها.

و أبي طوال الوقت مع أمي التي دخلت في غيبوبة بلا سبب منذ هذا اليوم الشنيع، وتفاجأ بموت أخته بعدها بأربعة أيام -تمكنت وقتها من زيارة أمي- فأصر أن يقيم العزاء مجددًا في بيتنا؛ وغالبًا ذلك لشعوره بالذنب لتقصيره نحوها في حياتها وعدم التعرف عليها أو الوقوف معها -مع جثتها- بعد موتها.

غياب أمي عن البيت يشعرني بحالة من النقص والفراغ الذي أكده أبي بصمته، بعد أربعة أيام من حجزها تمكّنت بصعوبة من زيارتها، وهالني شحوبها، ولم أصل لسبب غيبوبتها مع الأطباء الحائرين، رغم أنها كانت في كامل صحتها -كما أظن- قبلها. أبلغتهم أن آخر كلماتها كانت أنها تشعر بالاختناق، وكان صوتها به استغاثة ولكن ما زادهم كلامي إلا تخبطًا، أما أخواي ففي حيرة، ولأننا في فترة إجازتهما الدراسية كانا يأتيان لها يوميًا من الصباح الباكر مع بداية موعد الزيارة حتى نهايته.

ندى أختي في العشرين من عمرها، كانت تأتي تتأمل أمي فقط في صمت وحزن ثم بعد أيام أيقنت أن الوضع قد يطول؛ فبدأت تحكي لها يوميًا عن أحوالنا كأنها واعية، أما عادل أخي الصغير في التاسعة، كان في البداية يبكي فوق ذراعها ثم بعدها أصبح يبكي في حضن ندى، ثم حين لم يتبدل الحال أصبح يجلس صامتًا فقط. تلك التفاصيل حكت ندى لي بعضها وعشت بعضها معهم. كنا جميعًا نرحل في الثالثة بعد انتهاء وقت الزيارة لنعود

للمنزل لتبدأ ندى في تغطية غياب أمي سواءً في الطعام أو النظافة بكلّ أشكالها.

لاحظت طوال العزاء الذي امتد لثلاث ساعات -رغم تو افد الرجال على الصالة ورحيلهم- أن هناك شابًا يرتدي جينز وقميصًا أسود وعيناه فاتحتان -لم أحدد لونهما لبعده عني- ينظر لي، لا أعرفه ولم ألتقِ به في حياتي من قبل، أتى أول المعزين وظل جالسًا محدقًا بي دون أن يبالي بأحد حتى أنهيت دوري في تغطية أبي و أفقت من شرودي الذي طال، قام حين انتبهت له وأظهرت له أني مندهش من تحديقه، وتوجّه لي وسلّم عليّ قائلًا: "البقاء لله" ورحل تاركًا في يدي وريقة ملفوفة بدقة كانت بين أصابعه حتى لا ينتبه لها أحد، فدسستها في جيبي حتى انتهى العزاء تمامًا بعد نصف ساعة ورحل الناس، ودخل أبي لغرفته في صمت كالمعتاد فدخلت غرفتي وفتحتها، ووجدت مكتوبًا بها بخط أحمر وبشكل مبعثر كلامًا جعلني أنزل ركضًا و أنا أسب نفسي على عدم قراءتها مبكرًا، وكان ما توقعته قد حدث والشارع فارغًا تمامًا من الناس؛ فعدت مجددًا وأعدت قراءتها و أنا أحاول أن أفهم شيئًا ولكن بلا جدوى؛ فكل ما هو مكتوب كان:

"أمك كانت مع عمتك فاختنقت، تريد أن تعرف ما حدث وتنقذها، افتح مخك وستجد في نفسك ما لا تتخيله، ولكن يجب أن تعرف أنك ستهدم حياتك القديمة كلها. اتبعني".

(٣)

أسبوع آخر مر، وبقيت أمي على حالها، وبقي أبي في صمته، وأصبح بيتنا كبيت الأموات، و أنا كما كنت قديمًا أستيقظ ظهرًا وأهرب من البيت يوميًا حتى بعد الواحدة صباحًا فأعود وهم نائمون.

لا أستغل صمت أبي للاستمرار في أسلوب حياتي المرفوض منه ولكن ما هي البدائل المتاحة والوضع صار أسوأ الآن بغياب أمي وعمتي ملاذيّ في الحياة.

كنت أزور أمي من وقت لآخر فأقابل أخويّ اللذَين لا أشاهدهما في البيت، أخي ينظر لي بغضب وكأنني السبب فيما آل إليه بيتنا، وأختي عيناها فيهما صمت حزين لم أجرؤ قط على كسره خاصةً مؤخرًا، أما أبي فلا أقابله أبدًا ولحالة الصمت التي أصبحنا عليها لم أسأل عنه أخويّ. فقط أستمع إلى صوت أنفاسه أثناء النوم في بعض الليالي التي أعود فيها و أنا مشتاق لرؤيته. وحدة وفراغ أشد يحيطان بي -ومؤكد أخواي كذلك- الآن، ولكني في أوهن حالاتي خاصةً بدون صديق أو شخص أحكي معه عن أيّ شيء أو أفكر معه بصوتٍ عالٍ.

لم أعد أجلس مع أصحابي منذ اليوم الذي تلا يوم العزاء، فقد سألتهم جميعًا حين التقيتهم على المقهى مساءً عن الفتى ذي العينين الفاتحتين فلم يفدني أحد، وحين حكيت لهم عما حدث و أفكاري وجدت في عيونهم نظرات شفقة جرحتني، فقررت ألا أجلس معهم لفترة حتى أجمع شتات نفسي.

جلست لثلاثة أيام متتالية بعدها في الشارع في مكان غير واضح لعلي أجد هذا الفتى الذي قد يعود قاصدًا إياي مجددًا رغم تجاهلي له في المرة السابقة، وكان مكاني هذا ليحجبني عن عيون أبي أو أخويّ إذا نزل أحدهم في أيّ وقت من البيت، ولكن لم يحجبني عن باقي الجيران الذين أقسم بعضهم على ضياع عقلي بعد مرض أمي وموت عمتي والعزاء المتأخر جدًّا، مع انعزال أبي وصمته وامتناعه حتى عن الرد على أيّ سلامٍ يوجّه له من أيٍّ من جيراننا.

قرأت الورقة مئات المرات فلم أصل لشيء، ثم جاءت لي فكرة فلم أتردد، ذهبت إلى خطاط لعله يقول لي أيّ شيء، مثل نوع الحبر يدل على كذا أو أن الخط يدل على شيء من التخبط أو أنه خط أنثى أو أيٍّ مما نسمع عنه في أفلام الجاسوسية، فنظر لي بدهشة وقال لي إنها مجرد وريقة كُتب فوقها بسرعةٍ بقلمٍ جافٍ أحمر تلك الجملة ولا يوجد فيها شيء مميز أو مريب، فزادني إحباطًا.

مؤخرًا لاحظت تأخر ذهاب أخويّ لأمي فلم يعودا يذهبان من الصباح الباكر، بل تحرص أختي على تنظيف البيت و إفطار أبي، ثم تحضر طعام الغداء وتتركه في المطبخ حتى إن جعت آكل منه بشكل مباشر وهم في المستشفى، ثم وهما عائدان من المستشفى يقف الأمر على تسخينه فقط وليس إعداده من البداية.

استغللت أنا هذا ولم أعد للبيت، وبقيت في الشارع وحدي في المقهى الجديد الغريب الذي اعتدته للهروب من أصدقائي، ثم ذهبت لأمي مع بداية موعد الزيارة، ورغمًا عني حكيت لها كلّ ما حدث و انفعلت ووضعت رأسي على صدرها و أنا أجهش بالبكاء.

وظللت هكذا لفترة حتى هدأت تمامًا، ثم بدأت أنصت فسمعت صوت نبضاتها بداخلها وليس في هذا الجهاز السقيم ذي الصافرة المرعبة فشكرت الله على أنها ما زالت على قيد الحياة رغم الغيبوبة تلك، و أنه ما زال هناك أمل في استيقاظها.

رفعت رأسي ونظرت نحوها وبدأت أنتبه لما لم ألاحظه من قبل، وجودها على تلك الأجهزة التي تغذي جسدها إجباريًا أعاد التورد إلى وجنتيها والحيوية لوجهها الشاحب مؤخرًا في آخر شهر قبل الحادثة. أتذكر أني سألتها مرةً في تلك الفترة لمَ هي شاحبة هكذا فقالت "إرهاق البيت.. لا تهتم". ليتني اهتممت يا أمي لربما كنتِ معي الآن. كم أشتاقك يا أمي، لم أعرف قيمتك لي ولعائلتنا إلا بعد هذا الغياب القاسي، آسف. ثم اقتربت من أذنها وقلت ضاحكًا: "ربما تأخرت يا أمي ولكني اكتشفت سرك أنت وعمتي الله يرحمها".

ولدهشتي ارتفع صوت جهاز النبض بشكل متسارع أخافني فركضت خارج الغرفة لأنادي أيّ طبيبٍ حتى جاء أحدهم معي بسرعة وأعطى أمي شيئًا ما، فعاد صوت الجهاز يدق برتابة كما السابق فسألت الطبيب بقلق عما حدث، فقال: "اضطراب في نبضات القلب ولكن الحمد لله تم تداركه" .

ثم خرج مبتسمًا قائلًا: "أحسنت عملًا" وتركني وحدي في الغرفة مع أمي الممددة أمامي في غيبوبة تخفي أكثر مما تعلن.

جلست في زاوية الغرفة أرمق أمي في صمت، هل تسمعني؟ وهل إذا أكملت كلامي ستسمعني مجددًا؟ وهل التوتر هذا ناتج عما قلت أم مجرد مصادفة؟ نظرت إلى ساعة يدي ووجدت أن الوقت مر بسرعةٍ وكاد أخواي أن يأتيا؛ لذا رحلت في عجلٍ و أنا أنوي أن أكتشف ما حدث مهما تكلف الأمر.

نظرت في ساعتي بعد أن غادرت المستشفى، إنها الثانية عشرة ظهرًا، مؤكد أن أخويّ في طريقهما للمستشفى حالًا، و أبي حمل صمته معه لعمله، ولا أدري كيف هم صابرون عليه بوضعه الأبكم هذا. وصلت للمنزل في سرعة، كم هو رائع وهو فارغ صباحًا، يمكنني أن أفعل كلّ ما أرغب الآن، أشعر بالجوع ولكنني سأؤجله حتى أنهي مهمتي.

توجهت لمكتبة البيت وتفحصت كتبها بحثًا عن أيّ كتاب عن موضوع غير مألوف فلم أجد سوى الكتب الدينية وكتب مدرسة أخي وكتب كلية أختي، وبعض الروايات القديمة التي كانت تقرأها أمي أمامي وتقرأها أختي الآن، وفي الدلفة السفلية مجموعات عليها غبار من شرائط الفيديو والكاسيت التي لم يعد يستخدمها أحد الآن، ولكنها تمثل التراث والتاريخ لوالديّ فلم يتخليا عنها قط.

خرجت من المكتبة والغبار يملأ كفيّ فغسلتهما لأن المرحلة الثانية تحتاج دقة ولا يجب أن يبقى فيها أيّ أثر. دخلت غرفة أبويّ وبحثت في كلّ أدراجها ودلفها وقلبت الصناديق التي تحت السرير والتي فوق الدولاب، وخرجت من

تلك العملية خالي الوفاض لا أحمل سوى ابتسامة واسعة، بعد أن شاهدت صور العائلة منذ طفولتنا حتى الآن وتذكرت الكثير من الذكريات التي أشعرتني أن حياتي لم تكن فارغة كما كنت أظن.

بعد فشل المرحلة الأولى والثانية من عملية البحث، هناك مرحلة ثالثة ولكنها ليست هنا، لكن قبل دخولها يجب أن أبحث هنا أولًا. دخلت لغرفتي ركضًا وقلبت أدراجي تحت السرير والتي تحتوي أسراري من أيام الإعدادية ولم أفتحها منذ سنوات؛ لبقائي منذ الفترة الجامعية في الخارج أكثر من غرفتي، كنت أبحث عن شيء صغير لن يظهر بسرعة فقلبت الدرجين على الأرض وبدأت في إعادة محتوياتهما بسرعة وأنا أدرك أن ما أبحث عنه سألتقطه وألاحظه هكذا أسرع، وقد كانت علبة سوداء قطيفة معطرة حتى الآن برائحة الريحان كما هي رائحة كفي عمتي، عاشقة هذا النبات المعطر لشُرفَتِها دائمًا.

فتحتها وأخرجت منها مفتاح شقتها الذي أعطته لي من سنين للجوء لبيتها ودخوله في أيّ وقت حتى لو كانت مسافرة أو نزلت لتشتري أيّ شيء، لا أظن زوجها يقيم فيها مجددًا بعد وفاتها أو أجّرها بهذه السرعة.

وضعت المفتاح في جيبي وتركت باقي محتويات الأدراج على الأرض، ولكن قبل أن أترك الغرفة وجدت طرف ورقة أحمر يبرز من تحت وسادتي فسحبته، وجدته ظرفًا أحمر متوسط الحجم بداخله ورقة وصورة قديمة تجمع عمتي بأمي وأختي وهي رضيعة -وقد عرفتها من ردائها الوردي الذي

أصرت على الاحتفاظ به حتى الآن بدون سبب مقنع- وفتى صغير ملون العينين رأيت شبيهه الكبير في العزاء ومكتوب على ظهرها "سري للغاية".

أما الورقة فيها كلام كثير بالخط الأحمر، وقبل أن أقرأ سمعت صوت الباب يغلق بشدة رغم أني لم أسمعه يفتح قبلها، ثم علا صوت انكسارزجاج بشكل مدوي.

(٤)

أصلح الرجل الزجاج ثم نقدته ماله وانصرف دون سؤال، نظر أخي لي وعيناه كلهما أسئلة، ولكن غضبه مني منعه من التحدث معي، لست رائقًا مزاجيًا لأجل هذا الأمر، أما أختي فظلت تنظر لي في ترقب فلم أفهم لنظراتها سببًا ولم أسألها لأن ما حدث لم يزل يشغل بالي، ماذا أعاد أبي مبكرًا من عمله؟ ولماذا كان غاضبًا هكذا؟ لقد أغلق الباب بشدة فكسر زجاجه والباب كان متداعيًا بالفعل، حدثته أمي من قبل كثيرًا عن تغييره قبل أن نستيقظ يومًا ونجد أنفسنا مسروقين فقد ينزع الباب من مكانه بسهولة.

خرجت من غرفتي وقتها على صوت انكسار الزجاج فوجدت أبي ينظر له باندهاش، أو بالأصح بعينين فارغتين وبنظرة سطحية كأنه لا يعي كيف حدث هذا، وحين سمع صوت باب غرفتي جفل، لم يظن أنني سأكون في البيت أو مستيقظًا الآن، وظل ينظر لي لثوانٍ بنفس نظرة السمكة ثم انتبه وعادت لعينيه نظرة الغضب الكظيم، وقال لي أول كلمة ينطقها منذ أمد: "صلحه"، ثم دخل غرفته مجددًا وأغلقها بنفس القوة والعنف وتركني في حيرتي.

اتصلت بحسين صديقي، والده لديه محل زجاج -وكنت قد استعنت به في تصليح باب عمتي بعد أن رحلت الشرطة وقبل أن يأتي زوج عمتي- فقلت له ما حدث، ولأنه يعرف باب بيتي جيدًا فتكفل هو وأحد العمال عندهم بالمحل بالأمر.

وأثناء تنظيفي للأرض وكنس الزجاج المكسور والمنثور على الأرض وصل أخواي وسألتني أختي عما حدث وقبل أن أجيب كان حسين قد أرسل الرجل لتركيب الزجاج فقلت لها: "فيما بعد"، ودخل أخي بتأفف لأبي وأخذ منه المال المطلوب بعد أن طلبت منه ذلك وأعطاني المال دون كلام، وجلس في جانب الغرفة يشاهد الرجل أثناء تركيب الزجاج حتى رحل.

تذكرت ما كنت سأفعله ولكن قبل أن أنزل تمسكت أختي بأن نتناول غداءنا معًا فجلسنا على المنضدة كلنا حتى أبي مجتمعين كما لم يحدث منذ زمن، ولكن في صمت وبدون أمي.

أختي كانت تنظر لي من وقت لآخر وما زالت نظراتها بها كلام لا أدريه، نظرت لها نظرةً طويلةً لعلي أفهم شيئًا، ولكنها ظلت تنظر لي، وتحولت نظراتها لنظرات رجاء أشعرتني بمدى غبائي، ولم نكف عن حوار العيون غير المفهوم ذلك إلا حين وجدنا أبي وأخي ينظران لنا بدهشة من البداية، ثم عادت نظرات أبي لغضبها السابق وغادر المنضدة في حنق لم أفهم سببه، شكرت أختي على الطعام -مما أدهشها- بعدما شعرت أنها تعاني بدون أمي، وبغضب أبي وغيابي، ورعاية أخي، فقررت في نفسي أن أحدثها وأفهم منها ما كانت تريدني أن أعرفه دون كلام وأسألها أيضًا إن كانت تدري شيئًا عن الصورة التي وجدتها، ولكن حين أعود من مهمتي التي تأجلت كثيرًا وأنا لا أدري أو أضمن أيّ شيء هناك بعد، فساعدتها في إدخال الأطباق للمطبخ ودون العودة لغرفتي المقلوبة تركتهم ورحلت في عجل.

دخلت شقة عمتي في هدوء، كنت أتسلل على السلم كاللص الخائف من أن يراه أحد، لم أرغب في أن أقابل أحدًا ويسألني عن سبب مجيئي رغم وفاة عمتي. ومع ذلك قد حضّرت الإجابة مسبقًا وهي: "لكي آخذ بقية أشيائي من المنزل". ومعظم الجيران يعرفونني ويعرفون أنني كثيرًا ما أكون هنا فلن يشككوا في حجتي، ومع ذلك تمنيت ألا يراني أحد. الشقة شبه مظلمة ولا يكسر حدة الظلام سوى شعاع الشمس الغاربة المقتحم بشكل خجول مُتسرِّب من بين ثنيات خشب دلفات نافذة الصالة، كاسرًا لظلام المكان ومحولًا إياه لغرفة بديعة دافئة ذات أضواء برتقالية وصفراء وحمراء داكنة خفيفة مرسومة بفن على الأرض والحوائط المواجهة للنافذة، هل تدركين أيتها الشمس أن حرارة لافحة مثل حرارتك -أو أقل منها أكيد ولكن ليست واهنة- أحرقت صاحبة هذا المنزل والإنسانة الأقرب إليّ من أهلي؟ ألا تشعرين بالخجل فتلملمي خيوط شعاعك عن هذا المنزل وتتركيه لظلامه وبرود فقدان صاحبته؟

نزعت نفسي من أشجاني بصعوبة لأستغل الضوء الباقي لوقت قصير في مهمتي - وهي أكيد أهم من أشجاني- خوفًا من أن يحل الظلام فأضطر لفتح نور يكشفني، أو للاستعانة بضوء كشاف اشتريته في طريقي احتياطًا، ولكني أشك بمقدرته على مساعدتي فلم أكن لصًا أو شبل كشافة من قبل لأتعلم التكيف مع ضوء ضعيف وخاصة في عملية بحث.

لاحظت إضاءة خفيفة مشابهة لما في الصالة في غرفة الأطفال التي طالما نمت بها، ولكن لم أهتم لدخولها لإغلاق النافذة بإحكام خوفًا من الذكريات أو أن أدفن نفسي أكثر في أشجاني وشوقي لعمتي.

كالعادة أعرف طريقي فقد عشت في هذا البيت أكثر مما عشت في بيت والدي، عمتي تضع كلّ أور اقها الهامة فوق دولابها القصير، حذرتها من قبل من احتمالية أن تتآكل الأوراق وحدها بفعل الزمن أو بواسطة فئران فضحكت بشدة وقتها، وقالت أنه لا يوجد فئران في بيتها وأنها تضعهم في أكياس بلاستيكية وتغلقهم بإحكام، ولم تدعني أراهم عن قرب قط أو أساعدها في إضافة أوراق إليهم. جذبت مقعد التسريحة الصغير ووضعته بجانب الدولاب البعيد عن الفراش، وصعدت عليه لأجد شتى الصناديق فوق الدولاب، والعامل المشترك الوحيد بينهم هو التراب. حاولت جذب أحدهم ولكنه كان شديد الثقل، كيف لم يكسر هذا سقف الدولاب ويسقط على الملابس، تخوفت من أن أجذبه بشدة فيختل توازني على الكرسي الصغير وأسقط ويسقط فوقي، ومع هذا الثقل لن أندهش من وجود تلفاز قديم أو مكنسة كهربائية قديمة بداخله، عقدة التخزين التي عند جميع المصريين. حاولت مع الصندوق الذي بعده ولكن بمجرد أن حركته سمعت صوتًا كأصوات فناجين تتراقص فتصطدم برفق بعضها في بعضٍ دون أن يصل اصطدامها هذا لحد الكسر، حاولت أن أجرب حظي مع الصندوق الثالث ولكنه كان بعيدًا عني وثقيلًا قليلًا فلن يمكنني من مكاني هذا أن أحمله بتحكم، فكان عليّ النزول لتحريك المقعد قليلًا، ولكني لحمقي تكاسلت

فتشبثت في طرف الدولاب ورفعت رجليّ من على المقعد لأحمله بهما وأزيحه قليلًا ثم أعود إليه، ولكن شتان بين وزني قديمًا والآن، فاهتز الدولاب للأمام كأنه سيسقط فوقي بحمله من الصناديق التي أصدرت صوتًا مكتومًا لتحركها.

صدمت -دون قصد من المفاجأة- المقعد بقدمي اليمنى المطوحة في الهواء لتعلقي فأسقطته على جانبه فكان عليّ أن أترك الدولاب و أقفز بسرعة حتى لا يسقط فوقي.

نزلت على الأرض وآلمتني قدمي قليلًا ولكن ذلك أفضل من الفضيحة التي كانت ستحدث لو سقط الدولاب، وحمدت الله أن صوت تحرك الصناديق فوقه واهتزازه لم يكن ليُسمع أحدًا خارج نطاق الشقة، وضعت المقعد في المنتصف أمام الدولاب وعدت لأدفع الصناديق وأعيدها لمكانها، ولا أظن أن التراب الذي تناثر منها للأرض سيثير أيّ أحدٍ يدخل المنزل مستقبلًا؛ فالمحققون أنهوا عملهم ومؤكد سيزيد عليه الكثير حتى يدخل أحد للبيت سواء ليؤجره أو يعيش فيه. دفعت الصندوق الأول لأعيده بقوة لثقله والثاني برفق حتى لا أكسر ما بداخله، والثالث كان ثقيلًا أيضًا فدفعته بقوة وصرفت نظري عن كونه يحوي أور اقًا، أما الرابع فكان صغيرًا وثقيلًا قليلًا ولكنه رفض الدخول للنهاية.

في البداية حين لاحظت كونه على طرف الدولاب رغم صغره ظننت ذلك لقصر عمتي فهكذا يكون في المتناول أسهل ولكن الآن فهمت ما خفي عليّ، لقد كان يخفي شيئًا خلفه، لذا نزلت من على الكرسي ووضعت الكرسي في

مواجهته على الأرض وصعدت فوقه حتى أتمكن من السيطرة بالكامل على الصندوق الصغير الثقيل، وأنزلته للأرض لأجد خلفه علبة قديمة سوداء قطيفة متربة جدًّا وضخمة قليلًا، تشبه العلب التي كانت تضع فيها النساء قديمًا مصوغاتهن، هل هذا المكان الذي رأته عمتي الأنسب لإخفاء مصوغاتها؟ وهل لهذا لم تدعني أساعدها لنقل أيّ شيءٍ من أو إلى مكانها السري فوق الدولاب؟ هل لم تكن تأتمنني؟ كنت سأنزل غاضبًا لولا أني لاحظت طرف ورقة يبرز من جانب العلبة؛ لذا نحيت ظنوني كلها وجذبت الصندوق وجلست على السرير جهة الشباك لألحق بشعاع الضوء الأخير للشمس؛ حتى لا أضطر لأخذ الصندوق معي، فتحته في رفق فوجدت أكياسًا ملفوفةً على أوراق بداخلها فعرفت أن تلك أوراق عمتي التي ذكرتها سابقًا، سمعت صوتًا خفيفًا لحركة باب لا أدري آتية من أين؟ ربما باب شقة الجيران أو الهواء حرك أحد أبواب الشقة، لن أجعل أعصابي في مهب الريح، نظرت للأكياس مرةً أخرى فأخرجتهم من العلبة وفاجأني ما رأيت.

الكيس الأول يحتوي ورقًا والثاني يحتوي صورًا مربعة بإطارين أبيضين كصورٍ كانت تخرج من كاميرات فورية قديمة تدعي بولوريد، والكيس الثالث والأخير وما فاجأني بشدة يحوي أظرفًا حمراء مثل الذي وجدته في غرفتي. قبل أن أفضه سمعت صوت تكة زر وأخافني قربها؛ فأخذت الأكياس ووضعتها بجيبي، وقبل أن أغلق العلبة القطيفة لاحظت خاتمًا ودبلة في كيس صغير آخر ولكني لم أقربهما فليست السرقة من شيمي، ولو ارتبطت هاتان الحلقتان باللغز الذي أعيش به.

كان ضوء الشمس قد زال تقريبًا لذا أعدت بصعوبة كلّ شيء لمكانه، العلبة وأمامها الصندوق ومقعد التسريحة، و انتبهت بصعوبة أكثر لأن تكون خطواتي كلها فوق السجادة، ولم أقرب التراب المتناثر على طرف الدولاب حتى لا أترك أيّ أثر، وخرجت في هدوء من الغرفة وواربت بابها ولكن وجدت أن باب غرفة الأطفال مفتوح على مصراعيه، وهذا أكثر مما كان حين جئت، فإذا سلمت بأن الهواء حركه فما سبب النور الخفيف الذي يخرج من الغرفة وكأن الليل لم يحل؟ اقتربت بحذر و أنا أعلم بخطأ وحمق ما أفعله ولكني لم أمنع فضولي وحاولت أن أنظر خلسة لأستبين ما بالداخل، ولكن فاجأتني يد قوية دفعتني للحائط، وفي الظلام لم أتمكن من معرفة صاحبها.

(٥)

ضحك بصوته المبحوح قليلًا وقال وهو يعطيني لكمة خفيفة في كتفي.

- أنت؟ يا شيخ أرعبتني.. ظننتك لصًا.

نظرت لسعد غير مصدق عيني، إنه لم يأت في أيٍّ من جنازتي والدته فمتى حضر؟

- متى عدت يا سعد؟
- اليوم صباحًا.
- ولمَ لم تتصل بنا؟
- كنت سأتصل لكنني كنت متعبًا جدًّا، وحين صلت نمت فورًا وصحوت على صوت حركتك، ماذا كنت تعمل هنا؟
- سأحكي لك على كلّ شيء ولكن قل لي أولًا... كيف لم تأت لعزاء والدتك؟
- ظروف البلد أوقفت الطيران، إضراب كما يقولون فحُبِست ترانزيت يومين في بلد لا أعرف لغة أهلها حتى انتهى الحصار.
- يومين؟ أمك ماتت منذ فترة.
- وهل فكر أحد منكم أن يبلغني بذلك؟ اتصلت بها كعادتي أسبوعيًا فلم أجد إجابة، ولا أعرف رقم أبي الأخير، وتعبت حتى وصلت واتصلت بنادية ونهى أختيّ ولكنهما مثلي لا تعرفان شيئًا، فعائلتنا للأسف انفرط عقدها، ثم أخذت رقم والدك فردت عليّ ندى أختك وقالت لي ما حدث، صدمني الأمر بشدة.

تنهد بعمق ثم أردف:

- أعرف أن أمي وحيدة ومعرضة للاكتئاب ولكني كنت أحاول أن أخفف عنها باتصالي، ولم أتخيل قط أن يصل الأمر معها للانتحار.
- آسف يا سعد... ولكن هناك أشياء غير صحيحة في هذا الأمر.
- مهلًا، ماذا تقول؟
- التقرير الجنائي والزائر بالعزاء وأمي و....
- رفقًا بي... انتظر، فلنحضر شايًا ونتحدث وتحكي لي هذا الموضوع من البداية وتفهمني.
- إذًا فلتأتِ عندنا لنتحدث أفضل، بعيدًا عن حفرة الذكريات المتربة تلك.

******

تجلس ندى بالقرب من والدتها ثم تقترب بشدة من أذنها وتهمس:

- أمي، أحمد يدور حول نفسه وأنا غير قادرة على الصمت أكثر من ذلك، ما يمنعني من الكلام هو خوفي من رد فعله، سأعجز عن أن أحتويه وحدي مثلك، ولن يسامح أبي أبدًا.

يدخل عادل من الباب وينظر لأخته بعينين متسائلتين:

- هل أمي يمكن أن تسمعنا يا ندى؟

تعتدل ندى وتنظر لأخيها الصغير بحنان.

- نعم أكيد.. غدًا حين تستيقظ ستجدها تحكي لك كلّ ما قلناه.

- حقًّا؟ أمي، سعد عاد، وأرغمني "أبيه" أحمد أن أترك فراشي له، أنام مع ندى، أليس لديه فراش في بيته؟
- عيب يا عادل، اسمه "أبيه" سعد، إنه كبيرك"أبيه" أحمد.
- أنا غاضب أيضًا من "أبيه" أحمد.
- لماذا يا عادل؟

ينظر لأمه الر اقدة وتدمع عيناه فتأخذه ندى في حضنها:

- لا يا عادل.. أمي تعبت لأن ربنا كتب هذا ولا أحد تسبب به.. ادع لها لتُشفى سريعًا.
- لو كان "أبيه" أحمد موجودًا أو أبي لكان أنقذها.
- ويتركان عمتي؟
- كانت قد ماتت.. أنا كنت أخاف منها.
- ادع ربنا يا عادل يشفي أمي ويرحم عمتي ولا تقول هذا ثانيةً.
- حاضر.
- كما أني سعيدة أنك أصبحت تنام معي.

واحتضنت ندى أخاها بحنان.

******

في غرفة أحمد، تمدد الشابان على السريرين وقال أحمد في شرود:

- الفتى ذو العينين الزرقاوين سيجنني... كيف يكون هناك صورة قديمة له وهو صغير مع أمي وأمك وأختي ولا نعرفه... لم أكن سأطابق بينه وبين الصغير في الصورة دون تيْنك العينين المميزتين.

- دعك منه.. لقد قلت أن هناك ورقة مع الصورة.
- ذكي يا سعد.. لقد كدت أنسى أمرها.
- رائعة ذاكرتك.
- ولدي أيضًا ورق كثير من بيتكم.
- لقد سرقتنا إذًا.
- لم آخذ سوى الورق يا سعد لأفهم كيف ماتت عمتي.
- لا تغضب هكذا، لقد كنت أمزح معك، أرني الورقة التي كانت مع الصورة أولًا ثم نرى بعدها الباقي.

يعبث أحمد في جيبه ثم يخرج ورقة بيضاء مطوية عدة مرات ويفتحها برفق؛ فيخطفها سعد ويفتحها بسرعة ويقرأ بصوتٍ عالٍ غير مبالٍ باعتراض أحمد.

"صغيري.. كم تمنيت أن أصارحك، ولكنك طالما كنتَ بعيدًا ومنزويًا تبكي حظك السيئ، والذي لم يكن في أيدينا شيء لتغييره، فمفتاحك معك وعليك أن تجده بنفسك، بعد أن أرغمتنا وساعدتنا كذلك في إخفائه قديمًا. وحين تجده عليك أن تعلم أنك مثلنا، ولكن لسنا كلنا كذلك، وهناك ممن ليس منا سيحسدك على ما لديك، وهناك منا من ينكر ما ستجده أو يحاربه أو لا يدرك كيف يتعامل معه، وسيبحث دائمًا عن وسيلة لإقناعك بأنك ملعون، وسيقلب حياتك جحيمًا فانتبه. بقربك يا أحمد ملاك منك ولكن واسع الأفق ليدلك عما تبحث عنه ولكن لن تعرفه إلا إذا وسّعت أفقك و اقتربت أكثر، أو حين تجد مفتاحك فيصدمك الأمر، فاحذر يا صغيري... أمك نبيلة".

- منزوٍ ومفتاح أنا أخفيته قديمًا وجحيم؟
- وهناك ملاك أيضًا، عظيم.
- توقف عن المزاح، هل فهمت شيئًا؟
- نعم فهمت، أمك تقول لك اصنع نسخة من مفتاح البيت.
- يا شيخ اِلْتَهِ... ثم منذ متى تمضي أمي باسمها؟
- وهل كنت تقرأ الخطابات التي ترسلها لأحد لتعرف بماذا هي تمضي؟
- صحيح.. حين كان يأتي خطاب أو إيصال كنت أنا أو أختي من نستلم ونمضي.
- إذًا ابحث عن أيّ خطابات أرسلتها لأحد.
- لقد بحثت في كلّ الشقة ولم أجد شيئًا، الأهم منذ متى تركت هذا تحت وسادتي؟
- اسأل نفسك.. أو الأصح من ينظف أو يدخل تلك الغرفة غيرك؟
- أمي أو ندى.

يسمعان طرقات على الباب وتدخل ندى لتدعوهما للغداء، وتخرج في صمت بعد أن احمرت وجنتاها حين التقت عيناها بعيني سعد، فقال ممازحًا:

- لماذا لم نذكر عشرة جنيهات؟
- وماذا كنت ستفعل بها سوى أن تشتري طعامًا، ها هو الطعام قد أتى، هيا لنأكل.

يجلس الفتى ذو العينين الفاتحتين في مقعد بجانب فراش نبيلة، مرتديًا معطف الطبيب وينظر لها شزرًا.

- لقد عرفت كلّ شيء يا أمي... كيف طاوعك قلبك لتفعلي هذا في ابنك، لو كان غريبًا لما قسوتِ هكذا عليه، وكيف تعايشتِ مع أبي وهو ناكر شيئًا حين اشتركتِ معه في نكرانه ورفضه أنكرني أنا لأنني رغمًا عني أحمله؟ حقًّا لن أسامحك.

نزع المعطف وألقاه على الكرسي الذي كان يجلس عليه، وقبل أن يخرج من الغرفة نظر إليها مرةً أخيرةً وقال في شيء من الغضب بصوت منخفض:

- لقد أطلعت أختي على بعض الحقائق منذ فترة في وقت تمهيدك لها.. لقد كانت تعرف الكثير قبلي وهي من بحثت عني ولم أخف عنها سوى القليل، والذي سأعلنه كله للجميع قريبًا.

خرج من الغرفة في هدوء كظيم كالذي يسبق العاصفة، ولم تمر لحظات وارتفع صوت الجهاز الموصل بنبيلة في إشارة تحذيرية لتناقص دقات القلب بشكل متدهور وسريع، أسرع من استجابة الأطباء وركضهم نحو الغرفة بجهاز الإنعاش الكهربائي، حتى أصبح الصوت صفيرًا متواصلًا لا يدل سوى على النهاية.

(٦)

يجلس أحمد و أبوه و ابن عمته حول أمه السابحة في الغيبوبة متجهمين، بينما تبكي ندى بصمت وهي تحتضن "عادل" في محاولة يائسة لتخفيض صوت بكائه حتى لا يثور أبوها عليه، بعد أن أخبرهم الطبيب باستمرار تدهور حالة الأم بدون أسباب واضحة، وأن عليهم التواجد معها بأقصى حد ممكن لاحتمالية أن تكون تلك أيامها الأخيرة بالحياة.

ويبدو أن ما كانت ندى تخشاه لمعرفتها الجيدة بطباع أبيها قد حدث، فقد انفجر صارخًا بهم دون أن يأبه لكونه في المستشفى:

- أمكم لم تمت بعد لتبكوا هكذا.

تفاجأ سعد وعادل بتلك الثورة فنظر سعد مندهشًا لأحمد الذي لم يتأثر إطلاقًا بما حدث، وامتنع عادل عن البكاء مُرغمًا نفسه مع استمرار تساقط الدمع من عينيه واضطراب نفسه الذي كان مسموعًا لسرعته وثقله، مما زاد من غضب الأب فنظر له بنظرة نارية فأخذت ندى أخاها لخارج الغرفة.

نظر الأب نحو الأم ثم دفن رأسه في ذراعها مما أدهش "سعد" و"أحمد"، وما لبث إلا ثوانٍ وارتفع صوت بكائه ونشيجه بحرقة وأحمد مستمر في تأمله باندهاش، فضغط سعد على ذراع أحمد وأشار له نحو الباب فقاما في هدوء وتركا الغرفة. ولكنهما لم يجدا "ندى" أو "عادل" مما أقلق "سعد" فطمأنه "أحمد" بأنها مؤكد أخذت "عادل" لكافتيريا المستشفى لتهدئ من روعه.

صمتا قليلًا ثم تكلم أحمد في شرود دون أن ينظر لسعد وكانت نظراته كمن يشاهد أشياء بعيدة:

- أول مرة أرى أبي هكذا.
- طبيعي يا ابني وليس غريبًا.
- لا، بل غريب.. أبي في الفترة الأخيرة قبل موت والدتك كان حادًا جدًّا مع أمي، وتقريبًا كان كلّ كلامهما شجارًا.
- ليس سهلًا يا أحمد أن يشعر أنه يفقد أخته وزوجته بالتتالي دون أن يؤثر ذلك على أعصابه.. هذا لو لم تكسره حجم الخسارة.
- بمناسبة التأثير على الأعصاب... كيف حل عليك برود الأعصاب هذا، وكأن أمك لم تمت؟
- هل فشلت في التعامل مع والدك فأتيت لتجرب حظك معي؟ على كلّ حال لقد أتيت إلى مصر لزيارة قبر أمي فقط وذلك بعدما تجاوزت مرحلة الانكسار.
- غريبة!
- هيا لنُحضر أيّ طعام لنا ولأبيك، أصبحنا المغرب ولم يذق أحدنا شيئًا منذ الصباح، ولنطمئن أيضًا على أخويك.

******

رفع رؤوف رأسه من على ذراع زوجته وأخذ ثواني ليتمالك نفسه، ومسح وجهه المبتل بذراعه ثم التفت حوله فوجد الغرفة فارغة؛ فتنفس الصعداء ثم قام وتوجه للثلاجة الصغيرة في زاوية الغرفة، وأخذ منها زجاجة مياه معدنية صغيرة وشربها كلها، ثم ألقاها في القمامة وعاد لكرسيه مجددًا بعدما حركه قليلًا بحيث يواجه في جلسته زوجته، ثم أغمض عينيه وبدأ يكلمها بغضب:

- نبيلة.. أدري أنك تسمعيني.. بل إنني على يقينٍ من ذلك.. لو كان حسن هو السبب في حالتك سأقتله.. قلت لك مرارًا لن يأتي منه سوى المشاكل ولم تصدقيني.

صمت قليلًا ثم بدأ يكلمها بهدوء:

- لقد كنا سعداء وفي راحة، لمَ فتحتِ الأبواب القديمة؟ صدقتِني الآن حين قلت لكِ هذا الطريق آخره أسود.. ها هي آمال أحرقت نفسها وأنت كدتِ تضيعين مني بسببها.. أعرفتِ الآن أن الموضوع حب وخوف عليكِ وعلى أبنائنا وليس إنكارًا وتكبرًا كما قلتِ. أرجوكِ يكفي هروبًا وحزنًا وعودي إلينا.

شرد قليلًا ودون أن ينتبه سالت دمعة وحيدة من عينيه فنظر لزوجته بحب.

- أنا أحبك يا نبيلة، وبدونك للحقت بصالح، وزاد حبي لك حين احترمتِ رغبتي وبعدنا عن هذا الطريق واهتممنا فقط بعائلتنا.. نعم ضايقني أنكِ كنتِ تتركين أحمد عند آمال كثيرًا ولكن "سعد" هو ما منعني عن الكلام فهو وحيد كولد وسط أختيه، وأبوه لا يعبأ بأمره، ويشبه أباه وأختيه لا أمه فاطمأننت

على أحمد معه، لكن صدقًا لقد فرحت حين سافر وأدركت أن أحمد لن يتواجد هناك كثيرًا بعدها، ولا آمال ستجرؤ أن تنطق بكلمة له خوفًا مني. حتى بعدما رجع الآن مطمئنًا، ولن يفرق معي بعد موت آمال. هكذا صالح وآمال ماتا و أنس سافر وسأجعل "حسن" يعود إليه ثانيةً مهما كان سبب مجيئه، والسر لن يخرج عني وعنك وسيموت معنا.

ثم استدرك وقال كمن ينفي كلامه وينكره:

- ولكني لا أقصد أن تموتي الآن... لا تفهميني خطأ.. أعلم أن "أحمد" و"ندى" و"عادل" من حقهم أن يعرفوا، ولكن من يضمن عواقب معرفة قد تؤدي لموتهم كأقاربهم.. أعلم أن رأيي لا يرضيكِ ولكن فلتتذكري "أنس" حين وافقك ماذا حدث.. هيا انهضي فقد طالت رقدتك، وسأقول لك جملتك الأثيرة التي لطالما أغضبتني بها: "لسنا مثلهم يا روحي".

******

يجلس أحمد وندى وعادل في كافتيريا المستشفى بعدما أصر سعد أن يستريحوا حتى يشتري لهم الطعام، بدلًا من العصير الذي أحضرته ندى لها ولأخيها الصغير قبل حضورهم، ظل أحمد يرمق "عادل" وأخته في صمت ووجد أن "عادل" قد توقف عن البكاء، وأن ندى تمالكت أعصابها وأصبح الاثنان مختلفين تمامًا عما كانا عليه منذ قليل في الغرفة، وحين لاحظت ندى نظرته المتشككة ابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت في تردد:

- أشعر بأن ماما ستُشفى قريبًا جدًّا.

فابتسم عادل بفرحةٍ وزادت نظرة أحمد تشككًا ثم قال:

- يا رب.

صمتت ندى وأخرجت هاتفها النقال وبدأت تعبث فيه في توتر فقال أحمد بلهجة هادئة:

- من الذي رتب غرفتي آخر مرة يا ندى؟

نظرت له ندى في استغراب من السؤال الذي في غير محله وأجابت في دهشة:

- أنا.
- متى؟
- منذ ثلاثة أيام.
- ألم تلاحظي شيئًا غريبًا؟
- شيئًا غريبًا مثل ماذا؟
- مثل..

ورن هاتف ندى بشكل مفاجئ أفزعها؛ فانتفضت فزاد شك أحمد أن هناك شيئًا مريبًا، نظرت ندى للشاشة ثم ردت بصوت خافت جدًّا بعد أن التفّت نصف لفّة فوق مقعدها وأعطت ظهرها لأخيها.

- هنا... لا ينفع... حسنًا... فليكن.

وضعت ندى الهاتف في حقيبتها وارتشفت بسرعة آخر رشفة من عصيرها ثم توقفت وقالت أنها ذاهبة للحمام، ووصت "عادل" بألّا يبتعد عن أحمد،

وكان ذلك بالتزامن مع حضور سعد بالطعام فاستغرب انصرافها ثم جلس بجانب أحمد، وبدأ يفتح أكياس الشطائر، بينما أحمد يرمق أخته وهي تبتعد؛ فنظر لأحمد وهو يعطي عادل شطيرته سائلًا إياه:

- ماذا هناك يا أحمد؟
- هناك الكثير الذي لا أعرف عنه شيئًا.

ثم مسك يد سعد التي تفض شطيرة أخرى وقام من مقعده:

- لا.. انتظر.. سأرى شيئًا سريعًا قبل الأكل، انتبه لعادل و أنا سأعود ثانيةً.

وقبل أن يتحرك أحمد من مكانه انقطع التيار الكهربائي عن المستشفى كله وعم الظلام.

(٧)

لم يلبث انقطاع الكهرباء ثواني حتى عمل بشكل تلقائي مولد الطاقة الاحتياطي، نظر أحمد حوله فوجد أن كلّ شيء يسير بتلقائية كأن لا شيء قد حدث، ولكن أخته اختفت ولن يسأل عن مكان الحمام النسائي أو يتصل بها بعد ثوانٍ من رحيلها. فأوقف أول ممرضةٍ مرت بقربه وسألها عن أضرار الانقطاع المفاجئ للكهرباء؛ فطمأنته وقالت لا شيء فالمولدات الاحتياطية كثيرة هنا لتكرار انقطاع الكهرباء مؤخرًا، وجميع الأجهزة بالمستشفى تم تزويدها ببطاريات خارجية قابلة للشحن تعمل لمدة عشر دقائق بعد انقطاع الكهرباء؛ لتفادي أية أضرار قد تنتج في حالة تأخر المولدات الكهربائية عن عملها التلقائي، فابتسم أحمد وعاد للمنضدة وقد نسي أمر ندى؛ فاستغرب سعد عودته المبتسمة بعد رحيله المقلق فجلس أحمد موجهًا كلامه لعادل:

- أتريد "آيس كريم" يا عادل؟

انتبه عادل من شروده الطفولي على كلمة آيس كريم التي لحق بها اسمه فقفز فرحًا موافقًا؛ فأخرج أحمد خمسة جنيهات وأعطاها له، وأشار إلى طابور في مواجهته فانطلق عادل فرحًا وأحمد ما زال مبتسمًا.

- ما هذا الكرم يا أحمد والتغيير المفاجئ، ذاهب سرحان وعائد فرحان.. خير؟
- ما زال هناك أمل يا سعد.
- في الممرضة الحلوة التي كنت معها؟
- ماذا؟

- يا أحمد.. لقد طرت أول ما رأيتها ولولا أن النور قطع فأوقفك لكنت اصطدمت بها.
- أنت فهمت خطأ.
- أفهمني الصحيح إذًا.

حكى أحمد ما قالت له الممرضة وهو فرح ويلتهم شطيرته بسرعة، وسعد مبتسم بلؤم ساخر.

- يا رجل! لقد ظننتك أخذت رقم هاتفها، فتقول لي أن أهل مصر مبدعون في حل المشاكل لكن شبابها تنقصه الفرصة.. ما الجديد فيما قلته، هذا معروف من زمان.
- أنا فرح لإيجادي من أعطاهم الفرصة هنا، فلتنتبه لعادل، سأطمئن بسرعة على أمي.

******

وقفت ندى مع الفتى ذي العينين الزرقاوين في الطابق الذي به غرفة أمها بعيدًا عن باب الغرفة بجانب الدرج، دامعة العينين تقول بتأثر له وهو مهموم:

- لن ينفع ذلك الآن يا حسن.
- يجب أن أُصلح ما فعلته.
- أبي بالداخل.
- لا أستطيع الانتظار أكثر.
- هكذا ستؤذيها.

- لا.. ولا تخافي.

- أمي تشعر بنا ولو حدثت أيّ مشادة بينك وبين أبي بجوارها ستتعب أكثر ولن تتحمل.

- إذًا دعيه يخرج.

- كيف؟

- إذًا فلأدخل أنا.

- لا.

لفت خلافهما -رغم انخفاض صوته- انتباه المحيطين ولكن لم يقترب منهما أحد رغم ارتفاع الهمسات بشأنهما، كانت ندى ترى باب غرفة والدتها من بعيد فلاحظت فتح الباب؛ فدفعت حسن للدرج حاثة إياه على الصعود فرضخ على غير رغبة، ولم يره أبوها وهو متجه نحو الدرج ونحوها، ولاحظ اضطرابها فسألها عن السبب فسألته هي عن حالة والدتها بعد انقطاع الكهرباء؛ فطمأنها ونزل نحو الكافتيريا فتنفست الصعداء، ثم انتفضت مذعورة حين وضع حسن يده على كتفها؛ فابتسم لها بإرهاق ومسك يدها وجرها خلفه بسرعة متوسطة نحو غرفة أمها قائلًا:

- للعلم أحمد كان خلفك ولقد قطعت الكهرباء لأشغله.

- أتمزح؟ وماذا لو تأذى أحد؟ إننا بمستشفى.

- إنها مجرد ثوانٍ حتى تبتعدي، لا بدّ أن هناك حلولًا في المستشفى لذلك.

- أتمنى، رغم أني لا أضمن ذلك في كلّ المستشفيات في بلدنا.

ثم فتح الباب ليجدا أمها واعية تحدق بهما؛ فتركت يده وركضت نحوها بعينين دامعتين تحضنها وتقبل وجهها ويدها وهي تتمتم بكلمات الحمد وتكرر كلمة "أمي"، بينما وقف هو يحدق بهما فانتظرت الأم حتى انتهت موجة مشاعر ابنتها، ثم أشارت لحسن بالاقتراب؛ فاقترب في تردد محني الرأس حتى وصل بجانبها فابتسمت وفي حركة سريعة مباغتة، مسكت أذنه وجذبتها بعنف وهي تعنفه بمزاح:

- أتمزح يا حسن؟ كنت سأموت بسبب غضبك.

فقال وهو يتأوه متأسفًا دون أن ينتبه للهجتها المازحة:

- والله لم أقصد يا أمي، لقد كنت غاضبًا ولم أنتبه لتأثر الأجهزة.

تركت أذنه واحتضنته بحنان وهو يكرر أسفه بشكل تلقائي "آسف يا أمي، سامحيني"، ولم ينتبها لدخول أحمد الذي وقف أمامهم مذهولًا لدقيقة وقد أخرست المفاجأة ندى.

******

جلس كلٌّ من سعد وعادل و أبيه على طاولة واحدة صامتين، ولكن التوتر كان يعصف بسعد لنظرات خاله النارية التي يحدقه بها من وقت لآخر، ولم يستطع أن يكسر هذا الجو مزاح سعد مع عادل عن الآيس كريم أو محاولته الوحيدة للمزاح مع خاله أو كلمات التخفيف والتعزية.

طلب عادل بصوتٍ عالٍ الدخول للحمام فقام سعد، ولكن أوقفته إحدى الممرضات التي سمعت طلب عادل أثناء مرورها بجانبهم، فعرضت بابتسامة واسعة أن تأخذه لهناك.

اشتد الموقف توترًا برحيل عادل، ثم كسر رؤوف هذا الصمت بأسئلة متتابعة لسعد لم يستطع أن يجيبها كلها؛ لأن صمته للتفكير كان كالدعوة لخاله لطرح سؤال آخر دون انتظار إجابة السؤال السابق..

- لماذا لم تحضر عزاء أمك؟
- كان هناك إضراب في الطيران و..
- متى كلمتها آخر مرة؟
- قبل انتحر.. موتها بأيام.
- أختاك عرفتا؟
- لا.
- لماذا لم تقل لهما؟
- لأن..
- أتصدق أنها انتحرت؟
- لا أدري.
- لا تدري إذا كانت أمك تفعل ذلك أم لا؟
- .....
- ألم تقل لك شيئًا قبل أن تموت؟
- شيئًا كماذا؟

- ما آخر شيء قالته لك؟

صاح سعد وهو ينتفض من كرسيه:

- يكفي يا خالي... موت أمي وخاصةً بهذا الشكل أتعبني أكثر منك، ليس لأنني صامت وأحاول أن أخفف عنكم ظروف عمتي نبيلة أنني لا أشعر بالحزن والدهشة مما حدث.. لقد بكيتها يومين بالمطار كالأطفال والناس تشاهدني وتواسيني بلغات لا أعرف أساميها، ولم أهدأ سوى لاعتقادي أنها في الجنة، فأصبحت أدعو لها كلما فكرت فيها.. وللعلم يا خالي أمي كانت تشتكي من قسوتك وجفوتك كثيرًا في تليفوناتها الأخيرة، فلتدعُ الله أن تسامحك كلما صليت.

وترك سعد المستشفى غاضبًا دون أن يخبر أحدًا بوجهته.

******

خرج عادل من الحمام فوجد الممرضة ما زالت في انتظاره فابتسم لها ببراءةٍ وسألها عن الطريق نحو الكافيتريا؛ فابتسمت وأشارت له نحو الاتجاه الأيمن، وأصرت أن تمسك يده وتعيده بنفسها فرضخ مبتسمًا وسار معها، ولم يسيرا سوى خطوات قليلة في الممر الفارغ حتى ظهر فتى من الجهة المقابلة وسار باتجاههما حتى وصل إليهما، فكمّم فم عادل بشكل مباغت وحمله بقوة وعاد به للحمام والممرضة تر اقب الطريق.

وداخل الحمام الفارغ رش هذا الفتى من بخاخ في وجه عادل الذي استسلم مرغمًا لقبضة النوم الإجباري العاتية، ثم حمله على ذراعيه الاثنتين كمن يحمل طفله النائم، وخرج من باب جانبي للمستشفى بعيدًا عن الكافيتريا، وما لبثت إلا دقائق حتى رحلت الممرضة أيضًا بعد أن أبدلت ملابسها في الحمام ووضعتها في حقيبة اليد الخاصة بها الممتلئة بشتى أنواع الأدوية.

******

نظر رؤوف حوله منتظرًا عودة عادل لفترة أقلقته فتوجه لأقرب عامل وسأله عن الحمام، وذهب إليه فلم يجد الصغير مما زاد من قلقه؛ فتوجه لغرفة زوجته ليفتحها بسرعة فيصدمه ما رآه ويمنعه من التكلم، بل ويشغله عما أتى مهرولًا لأجله؛ فقد وجد أحمد جالسًا على الفراش في حضن زوجته التي خرجت من غيبوبتها الطويلة، وندى وحسن يجلسان على المقعدين المجاورين للفراش. انتقل بشدة وسرعة بين مشاعر مختلفة من الغضب والسعادة والحيرة، وأمام هذا التجمد، تجمد كلّ شيء في الغرفة فالكل صامتون ناظرون له منتظرين أيّ رد فعل منه لمدة ثوانٍ مرت كساعات، ولم يخرجهم من هذا سوى عينيه اللتين دمعتا رغم نظراته الغاضبة؛ فابتسمت زوجته نبيلة بحنان مفرط أعاده إلى وعيه فنظر لندى وتكلم بجدية مصطنعة:

- ألم تريْ "عادل"؟

فقام الكل مفزوعًا فأمرهم بالبحث عنه بالمستشفى، وخرجوا عدا أحمد الذي توقف حين نادته أمه و اقترب منها فهمست في أذنه:

- لقد سمعتك ولدي لك كلام كثير.. ابحث عن أخيك وسنتكلم حين نعود البيت.

ثم خرج وأصبح رؤوف وحده مع زوجته؛ فتصلب قليلًا أمامها ثم اندفع نحوها واحتضنها بشدة وهي تبادله الهمسات غير الواضحة لأكثر من عشر دقائق، ولم يقاطع ضمتهما سوى دخول أحمد وسعد لاهثَيْن وخلفهما ندى باكية وقالوا بأنفاس متقطعة:

- عادل اختفى من المستشفى كله.

(٨)

دخل أحمد المنزل فلم يجد الحال قد اختلف عما تركه، أمه تبكي وأخته تهدئ من روعها و أبوه يتصل بكل المستشفيات يسأل عنه، أحمد كان منهكًا بعد أن دار على كلّ الأقسام التي حول المستشفى وبيته، بل ودار حول المستشفى كثيرًا لعدة أيام لعله يجد أيّ خيطٍ يستدل به على أيّ طريقٍ ولكن بلا جدوى.

قبل أن يجلس دق الباب فتوجه له يجر قدميه كمن يحمل أثقالًا، وفتح بابه ليجد الشتيتين "سعد" و"حسن" اللذين عرفا بعضهما بعضًا عن طريقه في الأيام السابقة، حتى الآن لم يبتلع بعد موضوع أن "حسن" أخوه ولكن انشغاله باختفاء أخيه الحقيقي الصغير منعه من رفض أيّ مساعدة إضافية.

رمق الأب "حسن" ثم أغلق الهاتف بعنف ودخل يكمل اتصالاته من غرفة نومه، أحمد كذلك لا يبتلع سلوك والده مع حسن والمفترض أنه ابنه البكر.. اقترب حسن من الأم وظل يواسيها مع ندى بينما سعد توجه للمقعد الفارغ وجلس عليه. عشرات الأسئلة تطن في ذهن أحمد ولكن لا يملك إجاباتها ولا الجرأة ليسألها لأي أحد الآن.. هناك شيء مخفي فأمه وأخته و أبوه تقبلوا دخول حسن لحياتهم بكل أريحية، وكأنه أمر عادي أن يظهر غريب ويعلن أنه قريبهم بدرجة مباشرة.

أحمد ما زال غاضبًا من سعد لرحيله وقت اختفاء أخيه بعدما تركه في رعايته وليس في رعاية أبيه، كما أن "سعد" لو غضب من أبيه كان عليه أن يكلم أحمد، لا أن يرحل هكذا.. أليس هو من وصى قبلها أن يكون متمهلًا مع أبيه وأن يتحلى بسعة الصدر، ولكن من يملك الآن في تلك الأزمة العتاب أو الاعتراض على أيّ شيء؟

حتى هذا الـ"حسن" ذو العينين الباردتين كالمحيط يتعامل كأنه في بيته. نظر لأمه الباكية وحسن وندى المحيطين بها من الجانبين فوجدهما يؤكدان لها بشكل واثق غريب أن "عادل" سيعود ولكن عليها التماسك ليحدث ذلك.

شعر أحمد كأن كلّ شيء أصابه الجنون فأشار لسعد بعينه تجاه غرفته فتركا الصالة في هدوء ودخلا الغرفة، وأغلقا بابها في هدوء لا داعي له لأن أحدًا لم ينتبه لهما.

******

توقف عادل قليلًا عن البكاء الذي أتعبه دون أيّ جدوى ليستعيد طاقته لكي يواصل البكاء مجددًا بعدها.. كانت يداه مقيدتين خلفه وتؤلمانه لأنه جالس على الأرض وظهره مستند على أحد الجدران بشكل غير مريح. وكان أيضًا معصوب العينين ولكن ليس مُكمّمًا.. جرب أن ينادي أحدًا، يصرخ، يبكي، يتوسل ولكن بلا جدوى، فعلم أنه وحده في مكان مجهول مهجور من هذا الصمت المميت من حوله، بكى كثيرًا حتى تعب ونام عدة مرات بعد إرهاقه من البكاء المستمر.

ثم قرر أن يستريح قليلًا من البكاء. وقتها فقط صدمه ما حدث فقد وجد ماصة تُدفع برقة في فمه، خاف في البداية فأغلق فمه بشدة ثم سمع بدون صوت امرأة تأمره بالاستجابة بمودة فاستجاب لظمئه وجوعه ووجد أنه يمتص عصير مانجو لذيذ الطعم؛ فشرب الكوب الكبير في دقيقة، ثم استجاب للقمات خبز مغموسة في العسل الأبيض شهية فأكلها بلا أيّ اعتراض حتى شبع فقال في وداعة:

- يكفي، شبعت.

ثم صمت قليلًا وأكمل كلامه:

- من أنتِ.. وكيف أسمعك من غير صوت؟

فشعر بلمسة حانية لجبينه، ثم سمع خطوات ترحل فهتف مناديًا بلا أيّ نتيجة، حاول أن يتملص من الحبال المقيدة يده أو قدمه فلم ينجح فهتف مجددًا:

- أنت طيبة.. أرجوكِ فكي يدي، ذراعي تؤلمني بشدة.

ولكن لم يسمع أيّ رد ولا حتى صدى لصوته فيئس وابتسم لشبعه، ثم انحنى على جانبه وترك جسده يسقط مجاورًا للحائط، واستسلم لنوم أحن عليه مما سبقه.

******

نظرت الأم لباب غرفة أحمد وتأكدت أنه مغلق، ثم استنشقت شهيقًا عميقًا وتوقفت عن البكاء ونظرت لباب غرفة نومها الجالس بها زوجها لتتأكد من أنه مغلق كذلك، ثم نظرت لحسن وأومأت له بالجلوس في المقعد بجانب ندى ففعل؛ فقرّبت رأسها منهما وبدأت تتحدث بشكل هامس فشاركاها الحديث بنفس الشكل.

- أأنتما و اثقان أنكما ستستطيعان إعادة عادل؟
- ندى: أتشكين بنا يا أمي؟
- الأم: لا.. ولكنك كنتِ ممنوعة لوقت طويل.

ثم نظرت لحسن وقالت بشيء من الذنب واللوم الخفي.

- الأم: ولا أعلم إلام وصل حسن، وأخاف انفعاله يؤذي أحدًا كما حدث لي.
- حسن: والله يا أمي لقد حدث ذلك غصبًا عني ولم يحدث من قبل إطلاقًا.
- الأم: حسنًا.
- ندى: فلتتركيها علينا وعادل سيعود.. فقط اهدأي واشغلي أبي عنّا.
- الأم: لماذا لا يذهب لعمله؟
- ندى: لا أدري يا أمي.. لم يعد يطيق أيّ كلمة من أيّ شخص منذ تعبتِ.
- حسن: ماذا يعمل أبي؟
- الأم: ألم يقل لك أنس؟
- ندى: أنس من؟
- حسن: كان منشغلًا دومًا.
- الأم: كيف حاله؟

- ندى: أنس من؟

رن جرس التليفون فأوقفهم عن الكلام، ولكن لم يطل الرنين مما نبأهم أن أحمد أو أباه قد رد من تليفون الغرفة.. صمتا منتظرين أيّ رد فعل أو باب يُفتح ولكن طال الصمت فعادا للكلام:

- الأم: ما خطتكما؟
- ندى: سأصل لمكانه.
- حسن: و أنا سأتعامل مع خاطفيه.
- الأم: فلتعلم أن أحمد قدم بلاغًا والشرطة أكيد سيكون لها تخطيطها هي الأخرى، ولا يجب الاصطدام معهم، أنت تعرف حساسية موقفك.
- حسن: أدري.. حقًّا يا أمي أنا حزين مما فعلتِه فيّ أنت وأعمامي ولولا أن عمي "أنس" حكى لي كلّ التفاصيل لم أكن لأسامحكِ... أما أبي فلن أسامحه أبدًا.
- ندى: ألدي أعمام غير عمتي آمال يا أمي؟
- الأم: سأحكي لك فيما بعد.
- حسن: لماذا أحمد لا يعلم أيّ شيء؟
- الأم: لا هو ولا عادل، لقد أنسيناه من زمن، و أفهمت "عادل" أنه ليس أكثر من ذكاء أن يقرأ أفكار الآخرين. ومنعته عن ذاك بحجة أنه عيب كدخول حمام على شخص، ولكن أحيانًا يسألني وأؤلف أشياء طفولية ليقتنع بها.. أبوك أقام حظرًا و أنت ترى ماذا حدث لك.. لولا وجود ندى معي كنت سأموت كمدًا.. حتى عمتك آمال مُنِعت أن أزورها بنفسي.
- حسن بخبث: أيقدر أن يمنعك؟

- ابتسمت: بالطبع لا.. لكن لو عرف أني فعلت ذاك الله أعلم بالنتيجة ماذا ستكون.. و أنت تعلم أن الموضوع صعب كثير التفاصيل ولا ضمانات.

ابتسمت ندى بفهم متأخر فكادا أن يضحكا عليها لولا توتر الجو العام.

******

وقف أحمد بجانب نافذة غرفته ينظر للشارع بعينين فارغتين، بينما استلقى سعد على سريره مغمض العينين. يلتف أحمد وينظر له فيتذكر أيام الماضي فيبتسم مسامحًا إياه في سره ويقول بهدوء:

- نمت يا سعد؟
- لا.
- أتظن أن من خطف "عادل" يريد فدية أو شيئًا ما أم مجرد صدفة؟
- وهل وصلت الصدفة في مصر للخطف؟
- لا أقصد ذلك.. لكن البلد لم تعد أمانًا، أصبحنا نمشي في حذر طوال الوقت.
- لا تبالغ يا أحمد.. أنا هنا في مصر من فترة ولم أُسرق أو أُخطف بعد كما تقول.
- دعنا في الأهم.. أتلاحظ معي أن كلّ شيء انقلب حاله من يوم وفاة والدتك؟

يتجهم سعد فيصمت أحمد، وبعد دقيقة يقطع سعد هذا الصمت:

- أكمل يا أحمد.
- أنا آسف.

- وما ذنبك.. هذا عمرها.. الله يرحمها.
- الله يرحمها.. ما أقصده هو أن من ذلك الوقت وهناك أشياء غريبة جدًّا تحدث بشكل سريع متتالٍ، مرض أمي، سكوت أبي، عفريت العلبة حسن الذي ظهر -في يوم وليلة- أنه أخي الكبير والجميع يعرف و أنا الأحمق الوحيد الجاهل بذلك، وبالنهاية يتم اختطاف عادل، توقيت الاختطاف نفسه يحيرني.
- ألا تشعر أنك أصبحت مرتابًا أكثر مما ينبغي يا أحمد؟
- ألا تشعر أنت أن كلّ شيء أصبح غريبًا؟ حتى موت والدتك لم يكن طبيعيًا.. قل لي حقًّا كيف تتعامل مع هذا بكل هدوء بعد كلّ ما رأيته وحكيته لك؟
- دعنا نمسك الخيط من البداية.. ما ملاحظاتك عن وفاة أمي؟
- لم يكن الموت طبيعيًا.. جارتها قالت أنها كانت تكلمها في التليفون ثم..
- لا يا أحمد.. لا أطلب إعادة ترديد ما حكيته من قبل.. أقصد ما استنتاجاتك.. أو بالأصح ماذا تريدنا أن نفعل في تلك النقطة؟
- أحمد بيأس: لست أدري.
- ما رأيك أن نذهب لجارتنا الآن؟
- بالطبع لا.. ليس الآن.. لدينا مشكلة عادل.
- عدنا لنقطة الصفر.
- سعد.. المفترض أنك تساعدني و أنت الآن تحبطني.. وحقًا أنا لا أحتمل.

ينظر أحمد إلى سرير عادل ثم ينهار في البكاء فيحتضنه سعد بشكل تلقائي صامتًا لثوانٍ حتى يوقف أحمد بعد حين بكاءه بصعوبة، ويتمالك أعصابه ويبتعد عن سعد وهو يعبث في جيبه بحثًا عن منديل؛ فتصطدم يداه بأكياس بلاستيكية فيخرجها ويتذكرها، ولكن قبل أن يفتحها يسمعان جلبة خارج الغرفة وصياحًا عاليًا وصراخًا؛ فيتركها على المنضده ويهرعان خارج الغرفة؛ ليجدا والد أحمد "رؤوف" يخنق "حسن" وهو فوقه بعد أن أسقطه على الأرض، ويصرخ فيه بعنف بجملة واحدة ويعيدها والأم تحاول إنقاذه منه، وندى تبكي وهي تحاول ولكن بوهن، وحسن مستسلم له بطاعة غريبة بينما رؤوف في قمة غضبه ووجهه شديد الانفعال والاحمرار، وقد أغرقه العرق والدموع واللعاب وهو لا يتوقف عن الصراخ بهستيرية قائلًا:

- قتلت أباك يا حسن.. قتلت "أنس".

(٩)

جرى سعد وأحمد نحو رؤوف ونزعاه بصعوبة من فوق حسن، وأجلساه على أقرب كرسي فأكمل بكاءه ونشيجه وهو يشهق بعمق وعنف وصعوبة، جلسا بجانبه مجهدين بينما انحنت الأم على حسن تتأكد من بقائه حيًا، ثم تنفست الصعداء واحتضنته وهما جالسان على الأرض بينما بدأت ندى تهدأ وتتمالك أنفاسها، وجلست على الأريكة منهكة وظلوا صامتين جميعهم حتى أنهى الأب بكاءه، واعتدل حسن وأسند ظهره على الجزء الأسفل من الأريكة بجانب ساق أخته، وجلست أمه بجانبه بعد أن هدأت كذلك.

وجّه الأب الكلام لحسن ودار الحوار بينهما بينما الجميع صامت يتابعهما بهدوء والأم صامتة بغضب، بينما تظهر الحيرة على وجهي أحمد وسعد اللذين فاجأهما الحوار بشدة:

- ماذا تريد منّا يا حسن بعدما قتلت أباك؟
- أنس ليس أبي، و أنا لم أقتله.
- كاذب.
- لن تستطع تكذيبي مجددًا.
- ماذا؟
- لقد ذهبت للمستشفى قبل أن آتي لمصر، ومعي كلّ الدلائل على بنوتي لك أنت.

- ولماذا لم يظهر هذا الكلام من قبل؟ لم يظهر سوى بعد موت أنس حتى لا يُكذِّب ما تقول.
- عمي أنس أحن و أفضل منك بكثير، وحقًا كنت أتمنى أن يكون هو أبي وأن يعيش مع أمي، لقد أسكنني معه وحافظ عليّ بعدما بعتني أنت ولم يُشعرني طوال حياته أنه ليس أبي.

وحين عرفت بالصدفة في حادث ما قديمًا، اضطر أن يحكي لي كلّ الحقيقة حين ألححت في السؤال، ولم أستطع بعدها أن أجرحه بتمسكي بك بعد كلّ ما فعلته بي وبه وبأمي.

- كان يكذب.
- ليس لأنك لا تستسيغ الكلام ستكذِّبه.. اسأل أمي وستؤكد لك هي أيضًا.
- أمك الوحيدة التي لا حق لها بالنطق في هذا الموضوع أبدًا.

نظر حسن بغضب لأمه الصامتة ثم لإخوته الصامتين، وخرج من باب الشقة غاضبًا وصفقه بشدة خلفه، وآخر ما قاله قبلها كان:

- سأثبت لكم أن حياتكم هي التي كلها كذب.

نظر أحمد لأبيه وأمه الصامتين وهو لا يصدق ما سمعه، ثم بشكل تلقائي ركض نحو الباب مناديًا "حسن" وركض سعد ليلحق به، وخارج الباب وجد "حسن" قد وقف فعلًا ينظر لأحمد بغضب، وأحمد غير قادر على ترتيب كلماته لتخرج بشكل صحيح.

- أبي.. أخي.. أمي.. كيف.. أنس.. من.. أين.

توقف برهة وقد هدأ حسن قليلًا و ابتسم لتلعثم أحمد فقال بهدوء:

- أمك و أبوك أخفيا الكثير عنك، و أنت السبب قديمًا في ذلك دون أن تعي، لو عرفت أن تجعلهما يجيبان عن أسئلتك ستفهم الكثير، ولو لم تعرف هاتفني غدًا، رقمي مع ندى.

ثم تركهما ونزل الدرج وهما و اقفان في مكانهما، وبعد ثوانٍ عادا للمنزل فوجدا الأب قد دخل غرفته كالمعتاد ولكن في لحظة دخولهما سمعا صوت إغلاق باب الغرفة بالمفتاح من الداخل، وهذا ما لم يحدث من قبل، وفهمت الأم أنها تعتبر مطرودة من غرفتها تلك الليلة وعليها أن تنام مع ندى في غرفتها، وهذا أضاع على أحمد أيّ فرصة للتحدث مع أخته بانفراد، ولا يرى أنه قادر على مناقشة أمه في أيّ شيء حتى يعود عادل.

أشار أحمد لسعد فدخلا غرفة أحمد مجددًا وجلسا في صمت لثوانٍ ثم بدأ سعد بالكلام:

- حسن أخوك ولكن أباك لا يعترف به ويرى أنه ابن أنس و أنه قتله أو انتظر موته ليأتي كالكارثة إليكم.
- أنس من؟
- لا أعرف.
- حسن غريب من أول مرة رأيته.
- أتظن أن صورته وهو صغير قد تكون دليلًا على صدق كلامه؟
- أحسنت، هكذا بدأت تترابط الخيوط، ولكني أريد أن أسأله عن معنى ما كتبه في الورقة لي يوم العزاء.
- أين تلك الورقة الآن؟

قام أحمد وفتح دولاب ملابسه وبدأ يعبث في جيوب سراويله حتى وجد الوريقة، ثم عاد للجلوس مع سعد وأعادا قراءتها، وبدلًا من أن تساعدهما على فهم أيّ شيءٍ زادت أسئلتهما "أمك كانت مع عمتك فاختنقت، تريد أن تعرف ما حدث وتنقذها، افتح مخك، وستجد في نفسك ما لا تتخيله، ولكن يجب أن تعرف أنك ستهدم حياتك القديمة كلها. اتبعني".

- قال أحمد بحزن: هي بالفعل قد هُدمت الآن.. ليتني ما اتبعتك يا حسن.

******

في غرفة متواضعة لا تحوي سوى أريكة قديمة بجانب الجدار فوقها نافذة صغيرة، فراش كبير في الجهة المقابلة وعلى الجدار الثالث بينهما منضدة قصيرة عليها تلفاز صغير مغلق، وبجانبه جهاز حاسب آلي متنقل مغلق. تجلس على الأريكة الممرضة التي اختطفت الطفل، وعلى الفراش يتمدد الفتى الذي ساعدها. تحدث إليها بصوت خفيض وهو يرمق السقف:

- لا يا فكرية.. لن يحتمل!
- أتمزح.. إنه حفيد قاسم الهجيني.. ألم تره كيف تجاوب معي من أول مرة؟
- ولكنه طفل يا فكرية.
- اهدأ يا حلمي و اتركني أنا أتعامل.
- "أنا أتعامل" تلك هي التي ورطتنا في قضية اختطاف طفل وستذهب بنا لمصيبة ما.

- فلتتماسك قليلًا.. أنا متأكدة أنهم سيصلون لنا قبل الشرطة، هذا لو كانوا قد أبلغوهم بالفعل.. نحن لسنا بإيطاليا والناس هنا لو عرفوا سرهم سيقتلونهم.
- ولكن..
- لا لكن.. عادل نائم الآن.. دورك.
- سيخاف.
- هو خائف بالفعل من حالة الغموض المحبوس بها فأصبح عنده قابلية للتجاوب مع أيّ عنصر قد يساعده.
- ولكني لا أساعده.
- وهو لا يعرف ذلك.
- سيعرف.
- حلمي.. لا تعذبني معك واعمل ما أقوله لك فقط.
- لا تحدثيني هكذا.. أنا لست تحت أمرك.
- ليس أمرًا يا حلمي ولكنك متردد وترددك هذا يضيع الوقت، وسيخسرنا ما كسبناه.
- نحن لم نكسب أيّ شيء حتى الآن، على العكس لقد خسرنا كلّ ما معنا خلف طموح غريب في بالك.
- طموح غريب! ألم تكن تلك رغبتك في البداية؟ أم كنت تظن أنك حين تذهب لهم بشكل مباشر وتصارحهم بما ببالك سيشجعونك؟
- ولكني لم أرغب أن يدخل أطفال بالموضوع.

- هكذا فقط ستستطيع أن تلفت انتباههم ويسمعونك غصبًا عنهم وينفذون أيضًا كلّ ما تريده حتى لو لم يعجبهم.
- ربما كلامك صحيحًا ولكن..
- توقف عن الحنان المفرط هذا.. نحن لن نأكل الولد.. أنت عليك فقط أن تلهيه عني وتتركني أبحث عما يفيدنا.
- أتظنينه سيعطينا شيئًا مفيدًا؟
- على الأقل سيعطينا طرف الخيط وبابنا للدخول، وبعدها سنكمل وحدنا.
- اثنان في وقتٍ واحدٍ سيكون متعبًا عليه جدًّا.
- لن نحتاج أكثر من ربع ساعة.. أنا أعلم أين سأبحث.
- ربنا يستر.

******

في غرفة فاخرة يجلس على الأريكة رجل في الخمسين من عمره ممتلئ الجسد ولكن لا تظهر عليه معالم كبر السن، يشاهد التلفاز باهتمام، وعلى الكرسي المجاور له تجلس زوجته، وهي فتاة في منتصف عمره تتمتع بالجمال والرشاقة، تنظر في مجلة مصورة. بدأت كلامها وهي تخبئ وجهها في المجلة:

- ألن تكلم "سعد" يا جميل؟

يغلق التلفزيون وينظر لها بنظرات ريبة ويحدثها بينما ترتفع نبرة صوته مع كلّ سؤال، وهي ما زالت تخبئ وجهها خلف المجلة.

- كيف عرفتِ بوصوله لمصر؟
- لقد كلمني.
- بأيّ مناسبة يكلمك؟
- كان يسأل عنك.
- وكيف عرف رقمك؟ ولمَ لم يهاتفني مباشرةً؟ ردي عليّ و اتركي ما بيدك هذا.

تأخذ نفسًا عميقًا ثم تغلق المجلة وتتحدث بهدوء على الرغم من ارتفاع صوته قبلها.

- فلتسأله هو.. لماذا تسألني أنا؟ وما دمت تعرف أنه بمصر لمَ لم تتصل أنت به؟ أليس ابنك؟
- هو من عليه أن يتصل.
- أنت لم تعلمه حتى أن أمه ماتت ولم تذهب لعزائها.
- لا تفتحي تلك السيرة يا ابتسام.
- أنا لا أفتح شيئًا ولكنك من تدينه بالرغم من أنه سأل عنك بالفعل.
- ولمَ لم يتصل على هاتفي؟
- سلامة عقلك يا جميل.. أنت من غيرت رقم هاتفك من شهر وقلت أنك لا تريد أن تعرف أحدًا من حياتك القديمة!
- .....
- عمومًا لقد أعطيته رقمك الجديد وإن لم ترغب في مكالمته لا ترد على أرقام غريبة.. فقط تذكر أنك أباه.

وضعت المجلة على المنضدة الزجاجية الأنيقة التي تنتصف الغرفة وتقابل كلًا من الأريكة والكرسي، وقامت تاركة الغرفة فأراح ظهره على الأريكة وأغمض عينيه وتنهد بعمق وحرارة تاركًا فيضًا من الأفكار والذكريات يركض في باله.

******

جلس أحمد وسعد على الأرض في غرفته بعد أن أحكم أحمد إغلاق الباب، ثم أخرج وريقات من جيبه فكان منها رسالة حسن الأولى له ورسالة أمه، ووضع بجانبهم على الأرض صورة حسن مع أمه وأخته وعمته وثلاثة الأكياس التي أخذها من بيت عمته، وكان الكيس الأول يحتوي ورقًا والثاني يحتوي صورًا مربعة والكيس الثالث يحتوي أظرفًا حمراء. وظل مترددًا خائفًا أن يقربهم فنظر له سعد باستغراب قائلًا:

- ماذا تنتظر؟
- خائف؟
- مم؟
- لست أدري يا سعد!
- كيف هذا؟
- أشعر أنني سأجد أشياء كثيرة لا أعلمها والحقيقة أنا خائف من معرفتها.
- يجب أن تعرف لكي تفهم.
- وإن لم أرغب؟

- وتظل مغيبًا؟
- أكثر راحةً.
- تقصد أكثر غباءً.
- ماذا تقول؟
- لم تكن هكذا قط، كنت لماحًا وذكيًا وتحب أن تعرف كلّ شيء، منذ متى هذا الجبن؟
- الخوف يا سعد أمر لا يُفتخر به، ولكن ضع نفسك مكاني، ناس تموت بطرق غريبة وناس تظهر بعد غياب طويل وناس لا أعرفها فأجدهم أقاربي، وأمي كانت تموت وأكتشف أن لها مشكلة مع عمي الذي لأول مرة أسمع عنه بحياتي، وأخي يختطف، وكله مُتتالٍ، وكلام أسمعه وأجد الكل يعرفه وأنا لم أفهم منه أيّ شيء. كيف تريدني ألا أخاف بعد كلّ هذا؟
- من ماتت هي أمي الله يرحمها، ولن نهدأ حتى نعرف إذا كان الموضوع حادثة فعلًا أم مجرد ظنون غريبة بعقلك. أما موضوع "ناس تظهر بعد غياب طويل" فقل لي إن كان وجودي يضايقك يا أحمد فيمكن أن أعود لبيتنا أو أذهب عند أبي.
- أبوك؟ صحيح أين عمي جميل ولمَ لم أقابله حتى الآن؟
- أحضرت رقمه من سكرتيرته القديمة، لا أدري أحسن حظ لي أن يبقى معي هذا الرقم حتى أصل له أم لا، ولكنني لن أذهب لبيته قبلما أتأكد أنه هناك.
- لماذا؟

- غيّر كلّ حياته القديمة بعدما تزوج ابتسام، وكأنه لا يريدنا ثانيةً أو لا يريدنا أن نقربها.
- أو يغار عليها.
- من ابنه؟
- لا أدري.. مرت سنوات منذ آخر مرة رأيته بها.. أظن قبل أن تسافروا كلكم.
- أو بعبارة أدق: بعدما ترك أمي.

يُطرق باب الغرفة فيُلملم أحمد جميع ما أمامه ويضع عليهم وسادة لتغطيتهم، ويسمح للطارق بالدخول مع نظرات شك وحيرة من سعد له.

(١٠)

- ما هذا الذي حدث الآن يا آمال؟

- لا شيء.

- أتشككين بنظري.. تلك ليست المرة الأولى.

- أيّ مرة أولى؟

- يدك أخرجت نارًا.

- أتمزح.. ما الذي تقوله هذا؟

- هذا ما رأيته.

- أنمت جيدًا أمس يا جميل؟

- الحقيقة لا.

- لمَ؟

- جسدك كان حارًا بشدة لدرجة أنني لم أستطع النوم بقربه.

- ماذا؟

- شعرت أنك مصابة بحمى وحاولت إيقاظك فاستيقظتِ وقلتِ "اتركني أنام"، وكأن لا شيء بك ولكن هذا الأمر شغل فكري حتى الصباح، ثم وجدتك استيقظتِ لا تشكين من أيّ علة.

- أمتأكد أنه لم يكن حلمًا؟

- أتشككين في عقلي يا هانم؟

- لا.. ولكن كلامك عجيب جدًّا.

- أنت أعجب ومهما تخفين سأعرف سرك.

- لا تمزح.

- أنا لا أمزح وغدًا ستكتشفين ذلك بنفسك.

فتح جميل عينيه الرماديتين وظل يرمق أمامه بلا تركيز ثم قال لنفسه وهو ينهض:

- كذبتِ عليّ يا آمال.. وجزاء الكاذب الحرق.

******

تحرك مقبض باب الغرفة كثيرًا فتذكر أحمد أنه أغلق الغرفة؛ فقام وفتح الباب وعاد للجلوس على الأرض، دخلت ندى غرفة أخيها فوجدته جالسًا على الأرض هو وسعد وبجانبهما وسادة؛ فظنت أن أحمد كان يعبث أو يبحث تحت الفراش عن شيء في أدراجه التي رتبتهم منذ يومين، بعدما وجدت نصفها على الأرض ونسيت أن تسأل أحمد عن سبب ذلك. لم تتحدث أو تقل سبب وجودها بل جلست في صمت بجانبهما وهما ينظران لها بحيرة، وأغمضت عينيها وقالت بصوت منخفض:

- ماذا تعرفان عن أهلكما؟ كنتما حين تتشاجران هنا تذهبان لبيت عمتي "الله يرحمها"، وحين تتشاجران هناك تأتيان إلى هنا، وأنتما لا تعرفان معظم الحقائق عن أهل هنا أو هناك... لم تهتما سوى بالجري والمرح لا أكثر.

مسك أحمد ذراعها ففتحت عينيها ونظرت له بشكل لم يعتده من قبل من أخته الهادئة الطيبة الخجولة، لم تنظر له بهذا العمق من قبل، بل لم يتجاوز أيّ حوار بينهما أكثر من عشر دقائق حتى يتركها ويرحل.

يبتسم سعد قائلًا:

- ما هذا الغموض يا ندى؟ رفقًا بنا.. وكيف نحن غريبان عن أهلنا؟

نظرت له بغضبٍ قائلة:

- أتنكر أم تسأل؟
- سعد: نعم؟
- ندى: لو كنت تنكر سأقول لك أنك غبي أو كاذب.. ولو كنت تسأل تكون مغيبًا والحالتان مخزيتان.
- سعد: اِلحق أختك يا أحمد.. لن أرد عليها لأجلك ولأنها ابنة خالي ومقدر للحالة النفسية السيئة التي أنتم عليها.
- أحمد: ماذا تقولين يا ندى؟ انتبهي ولاحظي كلامك.

لم تبال ندى بكلمات أخيها وظلت موجهة كلامها لسعد:

- أتعرف لمَ طلق عمي جميل عمتي آمال "الله يرحمها"؟
- ماذا تقولين؟
- هل تعرف لمَ بعتم بيت الشرقية؟ أو تعرف أن أبي لم يعلم عن أمر البيع هذا شيئًا سوى بعده بسنة؟
- ندى، اهدئي قليلًا و أفهمينا معنى كلامك وماذا تقصدين به؟

أخذت ندى نفسًا عميقًا وقامت قائلة:

- لا يوجد وقت.

مسك أحمد يدها قبل أن تخرج من الغرفة فتوقفت؛ فأشار بالصورة ورسالة أمه أمامها فأجابت دون سؤال:

- أمي هي من أمرتني بأن أضعهم لك لو أصابها شيء.
- من عمي أنس؟
- لا أعرف.
- أين كنت أنا؟ وقت تلك الصورة؟
- مع أبي، لم يأمن لوجودك مع أمي وعمتي وحسن بدونه.
- ولمَ أنا؟ لمَ لم يأمن عليكِ أنتِ أيضًا؟

أعطت ندى ظهرها لهما وقالت وهي تخرج من الغرفة في ضيق:

- لقد كنت صغيرة جدًّا كما ترى، أحمد، حقًّا لا يوجد وقت لكل تلك الأسئلة.. عادل مختطف ومن خطفه هو من قتل عمتي.

******

وجد عادل نفسه يقف في غرفة بيضاء بلا أبواب أو نوافذ، فرح لأنه غير مُكمّم أو معصوب العينين ولكن سرعان ما أدرك أنه محبوس في مكان بلا أيّ أمل في الخروج منه؛ فشرع يبكي ولكن بعد دقيقتين سمع صوت مزلاج يفتح فتوقف عن البكاء، ووجد بابًا يُفتح من أحد الجدران ولم يكن واضحًا للونه الأبيض المطابق للون الجدار بشكل هائل، ثم وجد يدًا تمتد من الباب فتردد

قليلًا ثم أغمض عينيه وأمسك بها فتم جذبه لخارج الغرفة، حيث وجد حديقة واسعة زاهية الألوان ممتلئة بالورود الملونة والأشجار مختلفة الأحجام والأشكال، وفي منتصفها بحيرة صغيرة ممتلئة بالأسماك الملونة.

ابتسم عادل ونظر حوله فلم يجد أثرًا لصاحب اليد التي أخرجته ولا أثرًا للباب الذي خرج منه فلم يبال وركض نحو البحيرة، ونزع حذاءه وجلس على الحافة ووضع قدميه بالمياه وظل يحركهما بمرح، وهو يشاهد الأسماك السابحة بابتسامة واسعة لأكثر من ساعة، ثم قام وأخذ حذاءه في يده وسار حافيًا يشاهد الحديقة، ويركض حينًا خلف الفراشات أو يتوقف يرمق الأزهار ويحاول الاقتراب منها دون أن يضايق النحل على أور اقها لخوفه منه.

سمع عادل صوت رجل يناديه فتلفت حوله وظل يحاول تتبع مصدر الصوت، حتى وصل لشجرة ضخمة عديدة الأغصان السميكة، ووجد شابًا في عمر أخيه أحمد جالسًا تحتها فاقترب منه بحذر قائلًا:

- من أنت؟ و أين نحن؟
- أنا حلمي ونحن بالحديقة.
- وكيف جئت أنا هنا؟
- لا أدري.
- وماذا تفعل أنت هنا؟
- اتبعني وسأقول لك.

خلع حذاءه بسرعةٍ وبدأ في تسلق الشجرة وهو يضحك، مما جعل "عادل" يترك حذاءه ويتبعه وهو سعيد.

(١١)

تقف نبيلة على باب غرفتها الموصد وتطرقه بهدوءٍ هامسةً بصوتٍ منخفض:

- رؤوف افتح الباب.

- .....

- رؤوف يجب أن نتكلم.

- .....

- لا يمكن لأيّ أمر أن يُحل هكذا، وأنت تدري أن هذا الانعزال لا نتيجة له.

يُفتح باب غرفة أحمد وتخرج منه ندى مع ارتفاع نداء باسمها من الداخل دون أن تلتفت له، وتقف لثوانٍ ترمق أمها الواقفة أمام باب غرفتها الموصد ثم تتجه لغرفتها، ولكن نداء أمها يوقفها وتنظر لها بعينين دامعتين.

- ما بكِ يا ندى؟

- أحمد يتحامق ومُصر أن يعيش دور الضحية في وقت يجب علينا جميعًا أن نتكاتف.

- وماذا فعلتِ في أمر عادل؟

- لا أستطيع التركيز في هذا التوتر والقلق.

- وحسن؟

- أغلق هاتفه بعدما خرج من هنا ولا أعرف ماذا سأفعل.

- إذًا اتركي لي هذا وسأعرف كيف أصل له.

ينفتح باب غرفة النوم بعنف ويخرج رؤوف منها ويمسك ذراع زوجته نبيلة بعنف صائحًا:

- إن فعلتِ ما في بالي مجددًا.. لن تعرفيني ثانيةً أبدًا.

- ولكن هذا ابني يا رؤوف وهو يعرف كيف يعيد "عادل".

- الشرطة هي من ستعيد عادل وهذا كلام نهائي.. أتفهمين؟

******

صعد عادل خلف الفتى الضاحك على الشجرة ذات الأغصان الكثيرة السميكة، ولكن أثناء صعوده شعر بشيء من الألم في رأسه فتوقف وجلس على أقرب غصن، ولاحظ الفتى ذلك فزاد من صوت ضحكه ولكن حين لم يجد من عادل تجاوبًا نزل وجلس بجانبه، وسأله عما به فأشار عادل بعفوية نحو رأسه:

- أشعر بصداع شديد وأشياء غريبة أخرى برأسي.

- أشياء غريبة كيف؟

- أسمع صوت أبي وبكاء أمي وندى، و"أبيه" أحمد يتشاجر.

- انظر أمامك يا عادل.. ماذا ترى؟

- حديقة كبيرة.

- أترى أحدًا من أهلك؟

- لا.

- إذًا استمتع بهذا المكان لأننا لن نبقى به كثيرًا ثم سأعيدك لهم بعدها.

- حقًّا... لقد اشتقت لهم جدًّا.

- أعلم.. هيا لنلعب الآن قبل أن نذهب إليهم.

ثم عاد لتسلق الشجرة وتحامل عادل على نفسه رغم ألم رأسه، وأكمل تسلق الشجرة خلفه دون أن ينتبه أن قمة الشجرة تتوارى فوق السحاب.

******

يجلس جميل وآمال على مائدة الطعام وحدهما وينظر جميل في طبقه كثيرًا ثم يقول بحزم:

- آمال.. أنتِ طالق.

- ماذا؟

- كما سمعتِ.

- لماذا يا جميل؟ أبعد هذا العمر بسهولة تبيعني؟

- أنتِ لا تشعرين بمعاناتي.

- إذًا عرفني بها.. انتظر.. سأعرفك أنا.. ابتسام سكرتيرتك الشابة الجديدة، حركت رجولتك، وأشعرتك بشبابك الذي نسيته، فأصبحت تعاني بقربي.

- آمال دعينا نفترق بهدوء أفضل.

- أبعد هذا العمر تقول نفترق بهدوء؟ أأحمق أنت؟

- احفظي الأدب يا آمال.. طوال عمري لم أهنك أو أسئ إليكِ، لذا لن نهين بعضنا بعضًا في آخر أيامنا معًا.

- إذًا أفهمني لمَ هذا القرار؟ فيم قصرت أنا؟ حتى حين امتنعت عن الاقتراب مني لم أشتكِ وتحملت ذلك رغم مرارته

- أنتِ من تحملتِ؟ اصمتي أنا من تحملت الكثير في صمت.

- إذًا تكلم.. قل لي ماذا فعلته لتطلقني، أو لا تقول فأنا لا أريد أن أسمعك، واذهب لسكرتيرتك وتزوجها.. كلكم أوغاد.. الشيب يرعبكم.

- ستهينيني يا آمال مجددًا؟ انظري يا ابنة الحلال.. لقد صبرت عليكِ لأجل أبنائنا، وأظنك لاحظتِ كيف اهتممت أن يسافروا كلهم للخارج ويعيشوا بعيدًا وينشغلون في حياتهم عن انفصالنا الحتمي، أما لمَ الانفصال؟ فهذا لأنك لستِ طبيعية.. لا أقول مريضة أو مجنونة، بل أقول إنك شيطانة.

******

- أجُنّت أختك يا أحمد؟ ما الداعي لذكر سيرة أمي و أبي الآن؟ وماذا ذكّرها ببيت الشرقية؟ أنا لم أذهب إليه منذ احترق ولم يهتم أبي بإصلاحه، وحين طلبت السفر أعطاني مال بيعه الذي لم يستخدمه لسبب لم يقله لأحد.

- أعلم ذلك، ولكن يبدو أن هناك شيئًا حدث به.

- شيئًا حدث به! ماذا تقول يا أحمد، أستُجنُّ كأختك؟

- ليس جنونًا يا سعد.. ولكنني أشعر أن بالأمر لغزًا.

- لغز.. ما هذا الكلام الغريب؟

- هناك صورة كبيرة واضحة كسروها لعشرين قطعة وعليّ أن أجمعها وأرتبها لأرى تلك الصورة.

- أيّ صورةٍ وأيّ أحجيةٍ التي تتحدث عنها تلك؟ ثم من الذين كسروها؟

- أهلنا الذين نجهلهم.

- أنت تخرف.

- ألم يكن هذا ما قالته ندى؟

- توترها لفقدان أخيها الصغير هو السبب.

- هيا يا سعد.

- إلى أين؟

- سنذهب لطنط نادية.

(١٢)

ظلت ندى تحاول عدة مرات مع هاتفها الجوال ذي الشحن الضعيف المقارب على النفاد بلا نتيجة، ثم فتحت دولابها وغيرت ملابسها وفتحت حقيبتها و أفرغتها مما بها من أوراق ومستحضرات تجميل وغيرها، ثم فتحت درج دولابها السفلي وأخرجت منه حقيبة سوداء قماشية صغيرة مغلقة فوضعتها في حقيبة يدها دون أن تفتحها، ووضعت هاتفها أيضًا، وفتحت باب غرفتها بهدوء فوجدت غرفة نوم أبويها مغلقة و"أحمد" و"سعد" يخرجان من باب المنزل؛ فانتظرت لدقيقة ثم دخلت غرفة أحمد وأغلقتها عليها وظلت ترمق كلّ شيءٍ دون تركيز، ثم ضايقتها الفوضى التي عليها الغرفة التي لطالما حافظت عليها لمحبتها لأخيها الحاضر الغائب والصامت دومًا.

أغلقت النافذة ووضعت الوسادة على الفراش ورأت الأكياس والأوراق التي تحتها فقرأتهم جميعًا في عجالة ووجهها يبتسم حينًا ويدمع أحيانًا، وتظهر على ملامحها أمارات الدهشة ثم تعبيرات الفهم، ثم في النهاية أخذت بعضهم ووضعته بحقيبتها ورمقت الباقي بغضب ووضعتهم على السرير قائلة:

- ليته يفهم ويُقدِّر.

ثم تراجعت وأعادتهم على الأرض مجددًا ووضعت الوسادة عليهم، وخرجت من الغرفة تشعر بالاستياء لنسيانها سبب دخولها لها.

جلس رؤوف على الفراش تاركًا زوجته على باب الغرفة بعد أن أغلقاها على نفسيهما؛ فنظرت له طويلًا وهو يرمق النافذة المغلقة ثم جلست بجانبه وقالت بهدوء:

- رؤوف، لقد فعلت ما أمرتني به طوال السنين الماضية، أرجوك اسمح لي أن أنقذ ابننا.

- كاذبة يا نبيلة... لولا موت آمال لم أكن لأعرف أنك كما كنتِ دومًا.. والله أعلم كم مرة فعلتِ ذاك خلف ظهري.

- نعم أنا كما كنت ولا أنكر ذاتي، ولكني أقسم لك يا حبيبي أنني فعلًا لم أذهب لأيّ مكانٍ هكذا منذ تزوجنا حتى يوم وفاة أختك.. ووضعها فقط هذا اليوم هو ما جعلني أكسر كلامك لإنقاذها بسرعة.

- أختي ماتت يا نبيلة، و أنت كنتِ ستتبعينها وتتركاني وحدي.. أنا العاجز بينكم.

- لا تقل عاجزًا.

- حين أعجز عن حماية أسرتي أو أن أحكم بيتي فأنا عاجز يا نبيلة وحسن لن يعيش بيننا.

- أنس مات يا رؤوف.. ولو ألقيت ابنك مجددًا لن يجد من يرعاه.

- لا تقولي ابني، حسن كأنس وليس مثلي، لا تخدعي نفسك وتخدعيني، لقد سكتُّ في الماضي لكن لو أصررتِ على فتح هذا الموضوع ثانيةً لن أسكت هذه المرة.

اختفى الفتى الذي يصعد الشجرة فوقه فجأةً فأجفل عادل ولكن تشبث بالغصن وتماسك حتى لا يسقط، وتوقف عن التسلق وجلس على الغصن الذي كان يقف فوقه متعجبًا من اختفاء الفتى الغريب الذي لم يعد يذكر اسمه، لم يسمع صوتًا يدل على سقوط أو إفلات الغصن أو أيّ شيء، ورغم ذلك نظر للأسفل ليتبين إذا كان قد سقط ففاجأه ارتفاع موقعه الشاهق والمرعب، لم يتخيل الوصول إليه قط، نظر فوقه فوجد أن الشجرة تمتد للأعلى بشكل لا نهائي يتخطى السحاب فخاف، ولكن انتبه أن الألم الذي شعر به اختفى أيضًا.

شعر بالحيرة وفكر في أن يواصل التسلق ليرى نهاية تلك الشجرة العملاقة وليصل للسحاب الذي لطالما أمتعه شكله من على الأرض، ولم يتخيل يومًا أن يجد وسيلةً للوصول إليه بشكل مباشر لا عن طريق طائرة، فيراه بدون نافذة.

ظل يصعد بسعادة وفرح لأن أنفاسه لم تقل وساقيه لم تتعبا؛ وكأنه يصعد سلم منزله، ربما الصعود أصبح أقل تحديًا بعدم وجود منافس، ربما أقل مرحًا بدون تطاير الضحكات وأطراف الحوار، إلا أن حلمه بالوصول للسحاب كان أقوى من منعه؛ لذا أكمل تسلقه بكل حزم وبدأ يخاطب نفسه ويفكر بصوتٍ عالٍ:

- "أبيه" أحمد لن يصدق أنني وصلت للسحاب، ولا أيّ أحد، لماذا نسيت الكاميرا؟
- ها ها.. وماذا سأفعل بالكاميرا و أنا وحدي؟ وعمو الذي لا أتذكر اسمه ذهب دون أن يقول لي شيئًا أو يأخذني معه كما وعدني.

- ولكن ندى كانت ستصدقني، وأمي أيضًا، يا رب تكون خرجت من المستشفى وعادت للبيت، اشتقت لها، أبي لن يصدقني، هذا لو سمعني، لا أعرف لماذا تغير، يا رب يعود كما كان ويكلمنا ويضحك معنا ثانيةً.

استغرق عادل في حواره مع نفسه وهو مستمتع بارتفاعه المستمر، وظل ينظر للأسفل فلا يرى أيّ ملامح واضحة، وينظر للأعلى فيجد السحاب أقرب فيبتسم ويواصل التسلق، ولم ينتبه للغصن الصغير الذي قابله وكان أضعف من أن يتحمل ثقله فانثنى بقوة تحت قدمه؛ فوجد عادل نفسه معلقًا على الشجرة بذراعيه بينما ساقاه يرقصان في الهواء من تحته، وظل يبحث عن أيّ غصنٍ آخر ليضع قدمه عليه ففاجأه اختفاء الغصن الذي كان يمسكه بكلتا يديه؛ فصرخ وهو يهوي من ارتفاعه الشاهق.

(١٣)

وقف أحمد وسعد أمام باب شقة أسود اللون في نفس المبنى الذي تسكن به آمال عمة أحمد ووالدة سعد، تردد أحمد قليلًا ثم دق جرس الباب و انتظرا فلم يجدا أيّ نتيجة، تململ سعد في وقفته بينما أحمد طرق الباب بإصرار مجددًا ولكن بلا أيّ نتيجة، توجه سعد للسلم بينما دق أحمد جرس الباب مجددًا فقال سعد بعد أن أولاه ظهره وبدأ في نزول السلم ببطء منتظرًا أحمد:

- لا يوجد أحد يا أحمد.. هيا.

دق أحمد الباب مرةً أخيرةً باستسلام ثم لحق بسعد ولكن بعد خطوته الثانية على السلم فُتح الباب وظهر رجل في الخمسين مشعث الشعر، ناعس الملامح يتثاءب في منامته بعين شبه مغلقة، فعاد أحمد له بسرعة قائلًا بفرح:

- أهلًا يا عمي حازم.. خالة نادية موجودة؟

ضيّق الرجل نظرة عينيه ليتبين من أمامه ثم قال بتعجب:

- لا.. غير موجودة الآن.. من أنت يا بني؟

قبل أن يرد أحمد عاد سعد ليقف بجانبه قائلًا بابتسام:

- أهلًا يا عمي حازم.. أنا سعد ابن جاركم جميل، من نسكن في الدور الخامس.

- سعد ابن الشيطانة آمال.. امشيا من هنا وإلا قتلتكما.

وأغلق الباب بعنف في وجهيهما وقد وقفا يحملقان في الباب بدهشة، ثم نظر بعضهما لبعضٍ بتعجبٍ انقلب لغضب عند سعد الذي مد يده نحو الجرس فأوقفه أحمد بسرعة.

- اتركني يا أحمد.. هذا رجل قليل الاحترام.

- إنه رجل كبير السن ويبدو أنه بدأ يفقد زمام عقله.. عمومًا خالة نادية غير موجودة ووجودنا كقلته.

******

تجلس فكرية على الأرض واضعة يدها على رأس عادل المستلقي بجانبها بجوار الجدار، بينما أمامها هناك كرسي يجلس عليه حلمي مغمض العينين قاطب الجبين كمن يقوم بالتركيز بشدة، وتتساقط قطرات العرق بغزارة على وجهه، بينما عادل نائم بعمق والعرق يغمره أيضًا.

ظلا هكذا لساعة حتى طرق الباب الخارجي فانتبهت فكرية ورفعت يدها من على رأس عادل، وربتت على ساق حلمي فخرج من الحالة التي عليها؛ فأشارت إليه بصمت فأخذ الكرسي وخرجا من باب الغرفة، وتوجهت هي لفتح الباب بينما حمل الكرسي للشرفة.

فتحت الباب لتجد ندى تقف أمامها بثبات ظاهري فابتسمت بسخريةٍ قائلة:

- حقًّا عائلة قاسم الهجيني تلك لا حل لها!

وفاجأها أن رد ندى كان ضربةً قويةً بحقيبة يدها الثقيلة أسقطتها على الأرض و أفقدتها وعيها.. نظرت ندى حولها فلم تجد أحدًا فتخطت فكرية المستلقية على الأرض ودخلت المنزل وخطت خطوةً ثم تراجعت، وجذبت فكرية لداخل الشقة وأغلقت الباب بهدوء ووقفت ترمق الأبواب التي أمامها لتقرر أيهما تبدأ به، ثم بدأت النداء على عادل بصوتٍ هامسٍ فسمعت جلبةً خفيفةً من الشرفة، وقبل أن تتحرك وجدت حلمي يخرج منها ويرمقها ويرمق فكرية بغضب.

******

على فراش وثير يستلقي جميل محدقًا في السقف بلا انتباه، بينما تعاني رئتاه في التنفس نتيجة ضغط بطنه الضخم عليها... دخلت زوجته الشابة ابتسام ونظرت له وهو شارد ثم نظرت لانعكاسها في المرآة بتحسر، شعرت بألم خفيف في بطنها فتحسستها وتوجهت نحو الفراش، وجلست بجانب زوجها الذي لم ينتبه لها حتى وضعت يدها على يده فالتفت لها، وجدها تبتسم له بهدوء.

- خير يا ابتسام؟
- ما بك يا جميل؟ ماذا يشغل عقلك ويضايقك هكذا؟
- لا شيء.
- لقد تغيرت سلبيًا منذ عرفت بعودة ابنك لمصر.
- لا تشغلي بالك أنتِ.
- يا جميل بالك أنت هو المشغول دومًا ويمنعني أن أتحدث معك.

- ماذا تريدين يا ابتسام؟
- لا شيء... لا أريد سوى أن تجعلني أشعر أنك تعيش مع إنسانة لا كرسي.
- .....
- جميل... لِمَ قطيعتك مع ابنك؟
- أهاتفك ثانيةً؟
- لا... أنا فقط أسألك عن سبب الجفوة مع أبنائك؟
- ليس من شأنك.. ألست جيدًا معكِ؟ فلتنسي حياتي من قبلك.
- لكنك لم تكن هكذا قبل طلاق آمال.
- ماذا تقصدين؟
- أنا أعمل معك منذ عشرة أعوام وحنانك مع أبنائك ومعي هو ما جذبني إليك.
- لا تستفزيني يا ابتسام... أنتِ زوجتي ولستِ ابنتي.
- لا أقصد ذلك، ما أقصده هو أنك بعد طلاقك قاطعت أبناءك وتزوجتني وأصبحت شخصًا آخر.
- هل قصّرت معكِ؟
- لا، لكن...
- إذًا فلتصمتي وتحمدي ربنا على ما تعيشين به ولا شأن لكِ بأيّ شيءٍ آخر.
- فقط أفهمني لمَ تلك القسوة... أقنعني أنني لست السبب.
- لستِ السبب.
- يا سلام!
- يكفي يا ابتسام أنا غير رائق لكِ.

- جميل أنت أب.
- لست أباك يا ابتسام.
- أبو ابني يا جميل.
- ماذا؟
- أنا حامل.
- لا أريد أبناء مجددًا.. تخلصي منه قبل أن أتخلص أنا منكِ.

(١٤)

يعلو جرس باب بيت أحمد كثيرًا فتخرج نبيلة من غرفة نومها وتنظر لأبواب غرف أبنائها المغلقة بدهشة، ثم تفتح باب الشقة فتجد ساعي البريد وتستلم منه ظرفًا أبيضَ كبيرًا وتمضي باسمها وتستلمه، وتغلق الباب وهي مندهشة لهدوء البيت الذي لم يحدث منذ عامين حين اعتاد عادل النوم أمام التلفاز.

دخلت غرفة ندى فوجدتها فارغة، ثم دخلت غرفة أحمد فوجدتها فارغة كذلك فرفعت صوتها:

- رؤوف، أين أبناؤك؟
- لا أعلم.

نظرت من النافذة المفتوحة فوجدت الشارع غارقًا في الظلام فشعرت بألمٍ في قلبها؛ فخرجت مسرعةً من الغرفة وقد سقط الظرف من يدها بجانب الوسادة على الأرض، دخلت غرفتها ونظرت لزوجها بقلقٍ وقالت بعينين دامعتين:

- قلبي يؤلمني.
- ماذا حدث؟
- البيت خالٍ.. هل أخبرتك ندى أنها ستخرج؟
- لا.. ولكننا منذ مدة لا نتحدث إطلاقًا وأظنها اعتادت النزول لشراء مستلزمات البيت دون إخباري.

- لماذا امتنعت عن الذهاب لعملك؟ وما ذنب أبنائك في صمتك؟ وكأنهم أيتام بلا أب أو أم، ثم أيّ مستلزمات التي ستشتريها الآن؟
- فلنتكلم فيما بعد يا نبيلة... سأتصل بها لأعرف أين هي.

******

يقف سعد أمام باب شقته فينهره أحمد في ضيق:

- إلى أين يا سعد؟ لا وقت لدينا.
- بل أين ستذهب أنت يا أحمد؟ لقد تعبت معك ليومين وأريد أن أنام قليلًا، لا تنس أنني عائد من سفر سيئ.
- هل لو اختُطفتْ إحدى أختيك كنت سأعرف أن أنام و أتركك؟
- و أين تريدنا أن نذهب الآن؟
- إلى حسن.
- أتعرف مكانه؟
- لا.
- إذًا إلى أين ستذهب؟
- سأتصل بندى لأسألها.

يتصل أحمد بأخته فيجد هاتفها مشغولًا فيقول بغيظ:

- أوقته هذا؟
- ماذا؟

- تثرثر مع إحدى صديقاتها.
- فلنسترح قليلًا بالداخل ونعيد الاتصال بها بعدها.

يسمعان صوت خطوات تصعد بثقل على السلم مع صوت شهيق أنثوي عميق فينظران على السلم ليجدا امرأةً في منتصف أربعينها تحمل حقيبتين بلاستيكيتين سوداوين يصعبان سيرها؛ فركض أحمد نحوها وحملهما عنها مبتسمًا ابتسامةً واسعة.

- أهلًا يا خالة نادية... كم افتقدناكِ!

ابتسم سعد وفتح باب شقته على اتساعه.

******

ينظر حلمي لندى الواقفة بجانب أخته الغائبة عن الوعي على الأرض.

- أينفع هذا؟
- أتختطفان أخي وتريدني ألا أفعل شيئًا؟
- إن أباكِ هو من يعقد الأمور.
- بل إنها أختك المجنونة وكلامها لا يدخل العقل... لا أعرف لماذا تنقاد وراءها.
- لا تقولي أني منقاد.
- أهذا ما يضايقك؟ أين عادل؟
- لا تقلقي عليه هو بخير.
- أنا أسألك عن مكانه لا أحواله.

- ندى، اهدئي... أريد أن أتحدث معكِ قليلًا.

- ماذا لديك جديد لتقوله؟

- نحن لم نتحدث معًا من قبل لتفهمي وجهة نظرنا.

- عادل أولًا يا حلمي.

- لو لم نتحدث، فلن تريْ أنتِ ولا أخوكِ أهلكما مرةً أخرى.

- أتهددني؟

- نعم.. فقط لو لم تهدئي.. فلتسمعي كلامي أفضل لكما.

- حسنًا.

- فقط ساعديني لنضع فكرية على الفراش بالداخل وبعدها نتكلم.

تضع ندى حقيبتها على الأرض وتحمل فكرية مع حلمي، ويرن هاتفها بصوتٍ مكتومٍ داخل حقيبتها عدة مراتٍ دون انقطاع، ثم يغلق بشكل تلقائي لانتهاء طاقته المشحونة بداخله.

******

تجلس ابتسام باكيةً في الحمام لأكثر من ربع ساعة تنظر في المرآة ثم تتحول تعبيرات ملامحها للتعاسة، تشعر بألمٍ في بطنها فتنظر لها بغضبٍ وتضربها بقوة.

- لا يريدك.. لا تأتِ.

تنظر مرةً أخرى للمرآة وتبدأ تحدث نفسها في حوار من طرفين كلاهما هي:

- وما ذنبه لأضربه؟
- أضرب من.. وهل تأكدت أصلًا أنه موجود؟
- إذًا لمَ قلت لجميل أنك حامل؟
- إحساسي يقول لي أن هناك طفلًا.
- وإذا كذب الإحساس ماذا ستقولين له؟
- أجهضته.
- بهذه البساطة؟
- هو لا يريده.
- أنتِ مجنونة.
- أنا أحبه وكنت أريد أن أعيد له شعور الأبوة.
- كاذبة.. إذا كنتِ تحبينه فلمَ تحسرت على شبابك؟
- أنا أريد أن أصبح أمًا.
- أنت لا تعرفين ماذا تريدين، أو بالأصح تريدين كلّ شيء، قديمًا الزوج الثري والآن تريدين طفلًا لتصبحي أمًا وتريدين زوجًا آخر لتري فيه شبابك.
- أخطأ أن أحلم؟
- تلك أنانية وليست حلمًا... أفيقي حتى لا تخسري كلّ شيء.

غسلت وجهها وخرجت من الحمام وذهبت لزوجها مبتسمةً قائلة:

- احجزلي عند الدكتور شوقي يا جميل.. سأفعل ما تريده.

(١٥)

يخرج سعد من المطبخ حاملًا أقداح القهوة ويضعهم على المنضدة التي أمام أحمد ونادية فيقول أحمد ممازحًا:

- أستطعتَ عمل القهوة أم أن الغربة أنستك كيفية صنعها؟
- سعد: أتدري.. إنك لا تستحقها، اشربي يا خالة نادية وقولي له أنه لا يفهم في شيء.
- نادية: ماهر من يومك يا سعد.
- أحمد: طالما الخالة نادية شهدت بمهارتك إذًا نشرب ونحن مطمئنين.
- سعد: ليس لك قهوة بعد ما قلته ولكن كرمًا مني سأتركك تشربها.
- أحمد: إذًا اشرب الاثنين حتى لا تستطيع النوم وتندم.
- سعد: ليس شأنك.. سأشرب الاثنين وسأنام أيضًا.
- نادية: حين تنتهيان فلتتصلا بي.
- أحمد: اشتقنا إليك يا خالة.
- نادية: وأنا اشتقت لكما ولمزاحكما الثقيل هذا.. ألم تستطع يا سعد أن تتصل بي ولو مرة منذ سفرك؟ وأنت يا أحمد أنسيتني بعدما سافر سعد؟ يا خسارة!
- سعد: تقبّلي اعتذارنا يا خالة، نحن فعلًا مقصران.
- نادية: سوف أسامحكما من أجل أمك -رحمها الله- يا سعد.. كان فضلها على الجميع رغم ما قيل عنها.

- أحمد: بهذه المناسبة لقد قابلنا عمي "حازم" منذ قليل عندما ذهبنا نسأل عنكِ.. وسمعنا منه كلامًا سيئًا عن عمتي آمال.

صمتت نادية قليلًا ثم احتست رشفةً كبيرةً أخرى من قدحها وتساءلت بشرود لم يطل.

- نادية: نعم، حازم أحدهم؟ لم أكن أرغب أن تقابلاه.
- سعد: أحد مَن؟ ولماذا قال هذا الكلام يا خالة؟
- نادية: من الذين لم يفهموا تميز آمال.
- أحمد: تميزها في أيّ شيء؟
- نادية: أبوك يا أحمد و أبوك يا سعد وحازم زوجي وآخرون أخطأوا في حق آمال كثيرًا، ولقد تحمّلتْ وصبرتْ وحافظتْ عليك يا سعد أنت وأختيك وزواجها ككلٍّ إلى أن تعبت أعصابها؛ فلم تعد قادرةً على السيطرة طول الوقت وأُطلق عليها اللقب.
- سعد: سيطرة! وأيّ لقب؟
- نادية: الذي سمعته من زوجي... الشيطانة آمال.
- أحمد: حتى أبي قال ذلك؟
- نادية: لا، ولكنه أنكرها ولم يعد يسأل عنها إلا نادرًا وحاول أن يبعدك عنها وعن سعد.
- أحمد: متى حدث هذا؟
- نادية: عندما قال أن "سعد" ضايق "ندى" و أنتم في المرحلة الثانوية.

- سعد: أنا أتذكر هذا، ولقد غضبت من خالي جدًّا وقابلتك يا أحمد وذهبنا لأختك بعد مدرستها وقالت إن ذلك لم يحدث، وامتنعت عن الذهاب إلى منزلكم بعدها.
- أحمد: إذًا لماذا حدث هذا يا خالة ولماذا هذا اللقب؟
- نادية: هذا موضوع يطول شرحه.. أنصتوا جيدًا واصنعوا لنا قهوة مرة أخرى.

******

في صالة بيت أحمد يجلس رؤوف ونبيلة تتحرك في الغرفة بلا توقف.

- إلام وصلت يا رؤوف؟
- الهاتف ظل يرن كثيرًا ثم انغلق تمامًا.
- وهل يمكن أن تفعل ندى ذلك؟
- لا تسأليني أنا.. ألم تكن سرك و أنتِ سرها؟
- كان ذلك قبل أن تقلب حال البيت عندما غبت أنا عنه قليلًا.
- غبتِ؟ لقد كنتِ تموتين يا نبيلة.. وهذا الموضوع لم ينته ولكن ليس الآن.
- وماذا نفعل؟
- فقط اهدأي وسوف نعرف كلّ شيء... أما عن أسئلتك الأخرى فقد حصلت على إجازة إجبارية أسبوعًا.
- إجبارية.. لماذا؟
- رئيسي لم يرضِه صمتي في العمل، يريدني أن أثرثر أيضًا.

- ليست ثرثرة يا رؤوف ولكن أظن أن من حقه أن يحصل منك على إجابات عندما يسأل، و أنا أعرفك جيدًا عندما تقرر الصمت، كأنك تقسم ألا تنطق حتى لو اضطررت إلى استخدام لغة الإشارة أو الكتابة على الورق.
- وهو سيتعب لو قرأ ردي ولم يسمعه؟
- وماذا يجبره على ذلك؟
- احترامًا لرغبتي.
- أنا أحترم رغبتك لأني زوجتك وحبيبتك، و أبناؤك كذلك، لكن العمل له نظام مختلف، و أنت تدرك ذلك ولكنه العند وقت الغضب، على كلّ حالٍ حمدًا لله على عودة صوتك بالسلامة.

******

يجلس حلمي وندى في الشرفة الضيقة.

- ندى.. تعلمين أننا طبيعيان مهما تميزنا وتفهمين ما نقول وتقدرينه، ولكن أباكِ لا يعترف بذلك.
- أبي ليس مثلنا يا حلمي.
- كيف؟ أليست ور اثة.
- من أمي.
- أمك؟ وهل هناك عائلات أخرى مثلنا في مصر غير الهجيني وعزام؟
- قدرما أعرف لا.

- أمك ليست من نسل عزام.. أنا متأكد من ذلك.
- لكنها حفيدة قاسم الهجيني.
- قاسم ليس له غير محمد... جدك.
- وزبيدة؟
- من زبيدة هذه؟
- أم أمي.
- أهلك أقرباء؟
- نعم.
- و أين كانت زبيدة هذه؟
- كانت من حيث جئت أنت.
- إيطاليا؟
- نعم مع أمها.
- أفهميني أكثر.
- ما أخبرتني به أمي أن جدتي زبيدة كان لديها ابنان.. هي وأخوها صالح.
- وهل هناك صالح أيضًا؟
- نعم، ولكني لا أذكره.
- لماذا؟
- دعني أحكي ولا تسألني كثيرًا.
- احكِي

- أنجب قاسم الهجيني ولدًا وبنتًا وصدمه اختلافهما عن أقرانهما.. يجب أن نتذكر أن هذا حدث منذ ما يقارب القرن، الناس كانت تفكيرها أضيق... لذا قرر أن يقتل ابنته ويعيش مع ابنه في الصحراء ويعزله عن الناس... زوجته ذعرت وهربت لإيطاليا بابنتهما زبيدة، وهو انتقل فعلًا للصحراء مع ابنه حتى مات هناك فعاد جدي محمد ثانيةً للقاهرة وعمل واستقر بها. هو لاحظ تميزه ولكن خاف منه فكتمه بداخله كسر... لكن السر فضح في أبنائه الذين شابهوه عدا أبي.
- لمَ؟
- هذا يفسره أطباء الهندسة الوراثية ومتخصصو الجينات لا أنا.
- وماذا حدث لزبيدة؟

قبل أن تجيب ندى فاجأتهما فكرية التي استعادت وعيها ووقفت على باب الشرفة تقطر عيناها شزرًا.

- اسمحا لي أن أطلب لكما كوبي ليمون.. شكرًا يا حلمي لترحيبك بمن هاجمتني. سأؤجل عتابنا الآن ولكني -على عكسك- لن أرحمها.

(١٦)

تدخل ابتسام إلى البيت فتجد "جميل" يجلس على كرسي في الصالة ينتظرها فتبتسم له:

- لقد نفّذت رغبتك يا حبيبي، لا تقلق.
- كاذبة.
- ماذا تقول؟
- لقد هاتفت د. شوقي وقال أنكِ لم تحملي.

وضعت حقيبتها على المنضدة وجلست أمامها.

- لقد شعرت بهذا.
- وهل يستدل على الحمل بالشعور؟
- نعم، يسبق الإحساس أيّ اختبار، أم تعتقد أن الجميع أصبحوا بلا شعور مثلك.
- كوني مهذبة يا ابتسام.
- ماذا تريد الآن.. ألم تقل أنك لا تريد أطفالًا وإلا ستتركني؟ ها أنا خلصتك من هذا الهم على حساب أمومتي.
- أيّ أمومة يا ابتسام.. أتريدين خداعي؟ أنت إنسانة مغرورة لا يهمك سواكِ، إنجابك لأطفال سيكون شقاءً لهم.
- لا تحكم عليّ دون دليل.
- على كلّ حال هذا ليس موضوعنا.

- وما هو موضوعنا؟
- كذبك.
- رغبت أن أعرف رد فعلك واستعدادك.
- وعرفتِه.
- نعم.
- إذًا... أنت طالق.
- .....
- اجمعي ملابسكِ وغدًا ارحلي باكرًا.
- لماذا تلك القسوة يا جميل. أم أنك اعتدت الطلاق وتغيير الزوجات؟
- لا مكان لكاذبات معي.
- الأمر لا يستحق كلّ هذا.
- لم يتبق لي من العمر لأضيعه على كذبة جديدة.
- كذبة جديدة! أنا لم أكذب من قبل.
- إحساسك كله كذبة، ولكني قبلتها.
- إحساسي؟
- من بداية عملك معي أدركت طمعك في ثروتي، مثّلتِ طيبة لا مبرر لها، الاهتمام بصحتي وأسرتي لم يكن من مهام عملك، وحين تركت آمال لاحظت زيادة هذا الاهتمام، فهمتك من البداية وقبلت أن أكافئك فأدللك نتيجة مجهودك وأدلل نفسي في آخر أيامي، وأضمن أن أجد من يرعاني في حالة

مرضي، أو لكيلا أموت وحيدًا، ولكن ما لن أسمح به أبدًا أن يكذب أحد عليّ مجددًا.

******

ترشف نادية آخر رشفة من قدحها وأحمد وسعد جالسان أمامها بعيون مندهشة وقد بردت قهوتهما التي نسياها من غرابة ما سمعاه، ثم تكلما ببطء بالتوالي:

- سعد: أمي تشتعل.
- أحمد: أمي تطير.
- نادية: لا.. تنتقل يا أحمد.
- سعد: أبي طلق أمي لهذا.
- أحمد: لدي خال وعم لا أدري عنهما شيئًا.
- سعد: أمي هي سبب احتراق بيت الشرقية.
- أحمد: بسببي.
- سعد: نحن لسنا كعائلتنا.
- أحمد: و أبي كذلك.
- سعد: نحن غرباء.
- أحمد: تقصد عائلتنا هي الغريبة.
- نادية: أنا مرهقة يا شباب... سأترككما تفكران فيما قلنا وسنتكلم بشأنه قريبًا.
- أحمد: أبي وأمي قريبان؟

- نادية: أرجو فقط أن يساعدني أحدكما في حمل الحقائب.
- سعد: سأقوم أنا بهذا.
- أحمد: فقط أعطيني رقم هاتفك حتى لا يطردنا عمي حازم مستقبلًا.
- سعد: هاتف؟ نحن لم نهاتف ندى يا أحمد.

******

تدخل نبيلة الشرفة المظلمة وتتصل بندى مجددًا فتجد أن هاتفها ما زال مغلقًا؛ فتتصل بأحمد وتسأله عن ندى فتجده لا يعرف شيئًا؛ فتأمره بالعودة إلى المنزل، ثم تنظر لخارج الشرفة فترى نور الحمام ما زال منيرًا؛ فتطمئن لانشغال زوجها فتتصل برقم غير مسجل على هاتفها، ولكنها تحفظه، وتتكلم بهمس وهي موجهة ظهرها للشقة:

- نعم يا حسن، أخيرًا فتحت هاتفك.
- ....
- لا تحزن يا بني، حقك عليّ.
- ....
- مصيره سيعرف وقريبا جدًّا.. لا تقلق.
- .....
- أنا قلقة على أختك ندى.. ألم تقل لك شيئًا؟
- ....

- لماذا أغلقت هاتفك؟ الآن هي هاتفها مغلق وأنت آخر من كلمته، وكلانا لا يعلم مكانها.
- ....
- كيف يا حسن؟ أختك الوحيدة من تستطيع إيجادنا لا العكس.

يدخل رؤوف الشرفة وتلتقط أذنه اسم حسن فيصيح دون مراعاة وجوده بالشرفة:

- إذا كنت ترين أنني لا أستطيع الحفاظ على أبنائي فلتخبريني بذلك يا نبيلة، وأريني كيف سيستطيع ابنك أن يفيدك.

ويخرج من الشرفة ثم المنزل مغلقًا الباب خلفه بعنف.

(١٧)

تشعر ندى بحزن غامر يجتاح فكرها، حزن عنيف غير مبرر دفع بالدمع لمقلتيها بغزارة فغامت الرؤية ولم تعد ترى حلمي وفكرية بوضوح، حزن متزايد بمرور الثواني، حزن دفع بأسوأ الأفكار في ذهنها ودعاها للتخلص من حياتها ككلّ؛ فنظرت نحو سور الشرفة بتردد، وأخذت تجمع شجاعتها لتقدم على خطوة ما، ولم يمنعها من أفكارها السوداء تلك وجود شخص يشاهد انهيارها العصبي ذلك، ولم تعنِها نداءات حلمي لها أو حواره مع أخته الذي داربجانبها فلم تعِ منه شيئًا لحزنها الجامح.

- كفى يا فكرية.
- أتخاف عليها؟
- حرام عليكِ، البنت ما زالت صغيرة.
- وما المشكلة؟
- لا تعندي يا فكرية وتدمريها.
- إذًا فلترضخ يا حلمي.
- وستتركينها؟
- هي وأخوها.
- لا أصدقك.
- اسمع يا حلمي.. دعمك لي أو عدمه لا يشكل لي مشكلة، أنا طموحي أن أصبح كأبي، وسأنتقم له، وإن لم تشاركني فأنت الخاسر.

- أيّ انتقام؟ لم تذكري شيئًا عن ذلك من قبل، ثم إذا كان دعمي لا يعنيكِ فلمَ دفعتِني للعودة معكِ من إيطاليا؟

ابتسمت بمكرٍ وقالت وهي ترى ندى تتحسس خطواتها كالضرير بسبب دموعها نحو السور:

- شيء في نفس يعقوب.

.....

يعود سعد لشقته بعد أن ساعد جارته نادية وتركها قبل أن تفتح باب منزلها ليتجنب الاحتكاك مجددًا بزوجها، فوجد أحمد مضطربًا:

- ما بك يا أحمد؟
- لقد هاتفتني أمي للتو.
- أوجدوا "عادل"؟
- بل ندى اختفت.
- ماذا؟
- ليست بالمنزل وهاتفها مغلق.
- مغلق كيف؟ ألم تتصل بها منذ قليل وقلت إنها تتحدث مع صديقاتها؟
- أبي كان يهاتفها وقتها لذا كان الخط مشغولًا قبل أن يغلق الهاتف تمامًا، ولكن لا أحد يدري بمكانها.
- وماذا سنفعل؟
- سأعود للبيت.
- لمَ؟

- أمي تريدني ضروريًّا.
- إذًا سآتي معك.
- لا.. تأخر الوقت، و أنت مرهق ولن نفعل شيئًا الآن.. الصباح رباح.
- ألن تبلغ؟
- وماذا فعل البلاغ السابق لكي يؤثر الجديد؟ غدًا أكيد سيحلها ألف حلال.
- لم أقتنع ولكن كما تحب.
- تصبح على خير يا سعد.

******

تقف نبيلة في الشرفة ترمق الشارع المظلم أثناء محاولتها للاتصال بزوجها بلا نتيجة، تشرد وتتذكر أشياء مختلفة تجعلها تقطب ثم تبتسم عدة مرات بدون تناسق رغمًا عنها، يرن جرس الباب فيخطفها من شرودها ويعيدها لو اقعها الغريب؛ فتهرول نحوه وتفتح الباب فترى "حسن" يقف في خجلٍ فتحتضنه بقوةٍ ويبادلها الاحتضان، ثم يغلق الباب ويجلسان على أقرب مقعدين قابلاهما ويتحدثان بسعادةٍ فاضت من ملامحهما:

- اشتقت لك يا حسن.
- و أنا اشتقتك كثيرًا يا أمي، لا تتخيلين كم احتجت لحضنك، ولكن تلك الظروف السيئة التي قابلتني حبستني بداخل نفسي.
- ستمر إن شاء الله.. حمدًا لله على سلامتك يا ابني.
- الله يسلمك يا أمي.

- إخوتك مفقودون.
- سنصل لهم، لن نغلب.
- أصبت... قل لي أولًا، كيف مات أنس ومتى؟
- يوم موت عمتي آمال.
- ماذا؟
- أنس توأمها يا أمي و أنت تعرفين أن هذا الر ابط وحده في عائلتنا لعنة.
- فعلًا، أنس كاد أن يموت عدة مرات كلما كانت آمال تلد فكيف سيعيش بعد وفاتها.
- الأعمار بيد الله.. عمره لم يكن مربوطًا بعمرها، عمتي آمال لو كانت ماتت بشكل طبيعي لأكمل حياته بشكل عادي، ولكن عذابها قبل موتها هو السبب في موته.
- متخيلة الألم الذي شعر به قبل موته.
- كنت أقف بجواره عاجزًا حائرًا و أنا أرى جلده يحترق ونفسه يتسارع، وكتم أنينًا كاد أن يقتلع عينيه من محجريهما، و اتصلت بالإسعاف في محاولةٍ يائسةٍ لإنقاذه واستعددت لكل الأسئلة المتوقعة منهم لهذا الموقف، ولكن قبلما يصلون كان قد تفحم.
- الله يرحمك يا أنس.
- كان يحبك جدًّا لآخر يوم في عمره، لماذا وكيف تركتِه واخترتِ أبي؟
- لا وقت لهذا الكلام حاليًا.. ثم ماذا فعلت؟
- حين وصلت الإسعاف تظاهرت أن الأمر مجرد مكالمة خطأ ولم أدعهم يرونه.

- وهو؟
- جمعت رفاته في برطمان.
- الله يرحمك يا أنس.
- أحضرت البرطمان لكِ.
- أتمزح يا حسن؟ ولمَ لم تدفنه هناك؟
- لا.. أنس يا أمي لم يعد له هناك أحد بعد عودتي.
- أنس مات يا حسن.
- واضح أن مشاعرك له هي التي ماتت.. ومن قبل موته بكثير.

بكت نبيلة بعنفٍ فهدّأت دموعها نظراته الغاضبة الأخيرة، واحتضنها متأسفًا معطيًا ظهره للباب وحاجبًا الرؤية عن والدته؛ فلم يشعرا بدخول أحمد الهادئ ووقوفه لمشاهدتهما وسماعهما.

- أنت لم تعرف كم أحببت أنس، وكيف كان في حياتي، أبوك هو من دمر كلّ شيءٍ ورغم ذلك فتحنا صفحة جديدة كلنا وأخلصت لأبيك، لكنه مُصرٌّ أن يُسيِّر الكون بقوانينه هو، رغم أنه رغمًا عنه خارج دنيانا المميزة.

(١٨)

يقف رؤوف على باب بيت جميل وقبل أن يدق الجرس يُفتح الباب فيتفاجأ هو وابتسام من تلك الصدفة، كانت عيناها دامعتين ووجهها شاحبًا وتحمل في يدها حقيبة سفر؛ فوقفت ناظرة له منتظرة أن يقول شيئًا أو يوضح سبب الزيارة:

- أهلًا يا مدام ابتسام.
- أهلًا يا أستاذ رؤوف.
- هل جميل هنا؟
- لا.. خرج منذ ساعة.
- أتعرفين متى سيعود؟
- لا... عن إذنك.

يفسح لها لتخرج فتغلق الباب خلفها وتتحرك نحو المصعد الكهربائي وهي تتأرجح قليلًا في سيرها نتيجةً لثقل الحقيبة، فبدون أيّ كلمةٍ يمسك عنها حقيبتها ويسبقها نحو المصعد المفتوح، وبعد أن يدخلاه يضغط على زر الطابق الأرضي قائلًا:

- حضرتك مسافرة؟
- لا.
- ذاهبة لوالدتك؟
- منذ متى هذا الفضول يا أستاذ رؤوف؟

- آسف.
- لا تأسف، الأمر غير مستدعٍ.. عمومًا لن تراني مجددًا.

يصل المصعد للطابق الأرضي فتحمل حقيبتها وتخرج بسرعةٍ وهو في مكانه مذهولًا من خروجها من باب المبنى في نفس توقيت دخول جميل بجانبها بدون أيّ كلام، ثم يركب معه للمصعد صاعدين معًا.

******

جلس سعد في غرفته المظلمة على فراشه واضعًا حاسبه المحمول أمامه يتصفح عددًا من المواقع الأجنبية والعربية بلا توقف، ثم قام وفتح ضوء الغرفة وبحث في حقيبته، وأخرج منها دفترًا وقلمًا وبدأ يُدوِّن أجزاء من الكلام مما يراه أمامه على شاشة الحاسب الآلي.

"من أشهر الحوادث الموثوق بها تلك التي حدثت عام ١٩١٩م حين وُجد المؤلف الإنجليزي المعروف (تمبل تومسون) ميتًا في منزله إثر احتراق نصفه السفلي بشكل كامل، وكان من الواضح أن نارًا قويةً تسببت في تفحم ذلك الجزء وتقلص عظامه إلى حد كبير ومخيف... الغريب في الأمر أن تلك النار لم تؤثر على نصفه العلوي رغم شدتها كما لم تسبب احتراق ملابس الضحية أو أثاث المنزل".

meaning ، derived from the Greek words πυρ (pûr،"Pyrokinesis meaning "motion") or ability ، lightning") and κίνησις (kínesis،fire to create and control and manipulate fire with one's mind".

"الفيزيائي المعروف (هارتويل) كان من شهود العيان الذين حضروا احتراق إحدى النساء في ماساشوسيت بدون سبب واضح، ففجأة وأمام أعين الجميع اشتعلت النار في جذع وساقي المرأة ثم سرعان ما تفحمت خلال ثوانٍ معدودة....

وفي عام ١٩٣٨م وقعت حادثة احتراق مشهورة أمام حشد كبير من الناس في مقاطعة إسكس الإنجليزية، فبينما كانت الفتاة (فيليس نيو كومب) خارجة من أحد الفنادق مع مجموعة من المدعوين غمرتها نار مفاجئة أتت عليها خلال دقائق، وقد فشل الحاضرون في إخماد النار التي بدا أنها تنبع من داخل جسمها وقد ورد في أوراق المحقق الفقرة التالية: لم يسبق أن شاهدت شيئًا كهذا... فقد احترقت الفتاة بنار زرقاء ذات منشأ مجهول".

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)"

"ذهب البعض إلى أن كلّ خلية من خلايا الإنسان بطارية، وأن الإنش المكعب قادر على توليد ٤٠٠ ألف فولت. لكن هذه التفسيرات لا تكفي لتعليل الاحتراق التلقائي. وقال آخرون أن الاحتراق التلقائي نزوة عقلية حين يؤثر العقل على الجسد ويدفعه إلى بناء طاقات كهربائية هائلة، لكن نظرية جازمة حول هذا الموضوع ما تزال بعيدة المنال".

"العوامل المشتركة لجميع ظواهر الاحتراق الذاتي: النار بدون مصدر لها ولا تقل عن ١٥٠٠ درجة مئوية. الجسد البشري هو المتأثر الوحيد وجميع ما

حوله سليم وبعض الأطراف سليمة أيضًا. معظم الحوادث داخل المنزل لشخص وحيد".

يغلق سعد جهازه وضوء الغرفة ويستلقي على فراشه مبتسمًا قائلًا: "لقد كنتِ معجزة يا أمي".

******

- هل لي أن أسأل من أنس؟

يباغت صوت أحمد أخاه "حسن" ووالدته نبيلة فيصر حسن على الصمت ويجلس، بينما تأخذ نبيلة دقيقتين حتى تجمع شتات أعصابها بعد بكائها، ثم تشير لأحمد بالجلوس وتتكلم بهدوء:

- هل عرفت شيئًا عن ندى أو عادل؟
- الآن تذكرتِ أن "ندى" و"عادل" مخطوفان؟
- ماذا تقصد يا أحمد؟
- أقصد أين كان عادل وندى في حوار الذكريات هذا؟
- اهدأ يا أحمد و أنا سأحكي لك كلّ شيء.
- ومن قال أني أريد أن أسمع شيئًا؟ يكفيني ما عرفته اليوم.
- ماذا عرفت؟
- عرفت أنك لست طبيعية، عائلتنا كلها ليست كذلك، أو بالأصح ملعونون.
- ملعونون؟

- نعم ملعونون، حين لا نكون كالناس الطبيعية نصبح ملعونين ونستحق الحرق كعمتي.
- إياك أن تقول هذا يا أحمد!
- لماذا؟
- لأن هذا ليس كلامك.
- كلام من؟
- كلام أبيك... و أنت يا أحمد لست كأبيك.

******

فتحت ندى عينيها بصعوبة وهي تشعر بألم في رأسها، كانت جالسةً على الأرض مكمّمةً ومقيّدة اليدين والقدمين في غرفة ضوؤها ضعيف. نظرت حولها فوجدت "عادل" ملقى على الأرض بعيدًا عنها مقيدًا أيضًا ولكنه معصوب العينين غير مكمّم، وتتقاطر منه حبات العرق بشكل غزير، وتظهر على ملامح وجهه أعتى علامات الخوف، وبجانبه تجلس فكرية واضعةً يدها فوق رأسه ومطبقةً جفنيها وقاطبةً بشدة.

حاولت ندى التحرك فلم تستطع، وألم رأسها اشتد، ثم سمعت صوت حلمي من زاوية الغرفة يحدثها دون أن ينتظر أيّ ردٍّ منها:

- لا تحاولي أن تتحركي يا ندى، لن تعرفي، آسف أنني ضربتك على رأسك ولكن كان هذا سبيلي الوحيد لإثنائك عن الانتحار كما زرعت فكرية في عقلك ونحن بالشرفة، كان عندك حق، فكرية جنت ولا أعرف كيف أوقفها.

نظرت ندى لفكرية مندهشة لكلام حلمي عنها كذلك في وجودها.

- هي لا تستطيع سماعي الآن، فهي بداخل عقل عادل، لقد حبسته بداخل حلمه في وضع يشغله لكي تعرف هي أن تفتش كلّ تفاصيل ذكرياته دون أن يمنعها، وكان عادل هدفها من بينكم لأنه أبسطكم وأصغركم، ليس لديه مشاكلكم ولا ذكرياتكم، فما يحدث في البيت عندكم موجود وفكرية تفتش فيه، لا تخافي ففكرية مجنونة بهدف معين ربما لا أعرفه لكنها لن تؤذيه.

هي أكّلته وشرّبته وتهتم به. موضوع انتحارك الإجباري أيضًا لم تكن لتؤذيكِ بل وسيلة ضغط عليّ أنا حتى لا أمنعها، هي تدري أنه مستحيل أن أوذي أحدًا أو أرى شخصًا يؤذى وأصمت، وللأسف أنا ضربتك لأنكِ كنتِ أسرع من تراجع فكرية وتفتيتها للفكرة في بالك؛ فلزم عليّ أن أوقفك بأن أُغيّبك عن الوعي. أنا آسف يا ندى، سامحيني، وحاولي أن تُقدّري أنني في نفس المحنة معكما.

انتفضت فكرية فجأةً وفتحت عينيها ونظرت لحلمي بذعر:

- أوقف حلم عادل يا حلمي، الولد بدأ وعيه يُخدَّروقد لا يستيقظ أبدًا.

(١٩)

بعد سقوط طويل أرهق أعصابه التي توقعت الأسوأ لارتفاع الشجرة التي اختفت مع الوقت، وجد عادل نفسه معلقًا في الهواء، لم يعد يسقط ولكنه غير قادر كذلك على العودة للأرض بسلام أو التحليق لأعلى أو التحرك من مكانه، فقط معلق في فراغ يرمق الفراغ، أعجبه الأمر في البداية حين أيقن بفقدانه وزنه واستحالة سقوطه فبدأ يحرك يديه أولًا فلم يجد أنه يطير، فجرب أن يحرك يديه وقدميه كأنه يسبح فوجد نفسه في مكانه أيضًا؛ فنظر أسفله فلم يجد أرضًا ونظر حوله فوجد الأمر كذلك، هذا الامتداد اللانهائي في اللون الأبيض جعله يظن أنه مات فبدأ يتخيل ما قد يجده في الجنة من حيوانات لم يرها من قبل، والألعاب التي حلم أن يقتنيها يومًا، وأصحابه الذين لم يقابلهم منذ زمن، و أقاربه الذين توفوا ويشتاق إليهم، ثم تذكر عمته آمال وأنها ماتت محترقة فتذكر النار وتذكر كلّ أخطائه ولوم أبويه وإخوته من وقت لآخر له على أخطائه؛ فأيقن بأنه سيدخل النار فبدأ يبكي بهدوء، ثم تسارعت الأفكار السوداء في رأسه فزاد بكاءً ونحيبًا بشكل جعل جسده يرتجف بشدة، وتمنى أن تكون والدته أو ندى بجواره الآن فهما فقط من يشعر معهما بالأمان، وهما وحدهما القادرتان على تصحيح جميع أخطائه مهما فعل، لذا كان يراهما بطلتيه وليستا أخته وأمه.

حين اشتد بكاؤه سمع صوت رعد وبدأت السماء غير واضحة المعالم تمطر؛ فابتلت ملابسه وزاد ارتجافًا وخوفًا وبكاءً، ثم فاجأه أن جسده بدأ

يهدأ ووعيه يغيب ببطء كأنه في سريره وفي طريقه للنوم؛ فبدأ يستسلم لهذا النعاس ومدد جسده رأسيًا غير مبالٍ بأنه نائم على الهواء، و ابتسم في هدوء وهو يغمض عينيه وكل ما في باله أنه سينام بشكل نهائي، وسيذهب إلى خالقه لأنه مات. وقال في وداعة:

- تصبحي على خير يا أمي، تصبحي على خير يا ندى، أنا لن أستيقظ غدًا فلا تغضبوا مني، ولتسلموا على بابا وأحمد وسعد و"عمو" حسن أخي الجديد، وقولوا لهم أني أحبهم مهما حدث، واستغفروا ربنا لي كثيرًا حتى لا أدخل النار كعمتي آمال الله يرحمها.

******

يجلس رؤوف وجميل في الصالة صامتين، ينظر رؤوف لجميل بشيءٍ من الحرج ثم يبدأ كلامه بتردد:

- أنا آسف لحضوري دون موعد.

- لا بأس.

- أتيت لهنا فوجدت "مدام ابتسام" خارجة فساعدتها في النزول حين عرفت أنك غير موجود.

- لا يهم.

- ما بك يا جميل؟

- طلقتها.

- نعم؟

- فلتنس أمرها ودعنا للمهم، لم أرك منذ زمن.

- ابتسام كانت أفضل تعويض بعد آمال.

- أليست آمال أختك؟

- أعرف، و انتسابي لتلك العائلة يضايقني دومًا.

- لماذا تفتح الأوراق القديمة، خوفك من آمال انتهى بموتها، لمَ تعذب نفسك الآن؟

- عاد حسن.

- وترك أنس؟

- أنس مات.

- ماذا؟ متى؟

- يوم موت آمال.

- أبسببها؟

- مؤكد.

- وماذا ستفعل؟

- مشكلتي ليست معه لشخصه، مشكلتي مع نبيلة.

- الأمومة.

- هذا ليس كلّ شيء، عادل خُطف وهي تعتمد على حسن للوصول إليه.

- عادل خُطف؟

- نعم.. من المستشفى.

- ماذا؟ مستشفى؟

- نبيلة كانت تموت يا جميل.

- متى حدث كلّ هذا؟ ولماذا لم تتصل بي.

- لقد حللتك من أيّ التزام لارتباطك بنا من يوم طلاق آمال.. لكني أحتاجك الآن جدًّا، إحساسي بوحدتي بينهم أعجزني.

- أبلغت الشرطة؟

- بالتأكيد، ولكنك تعرف كيف هي الأحوال الآن.

- وماذا يمكن أن أفعل يا رؤوف؟

- أريد مساعدتك في إيجاد عادل في أسرع وقت، وأظن بعلاقاتك يمكن أن تُنشِّط بلاغ فقدان طفل.

- انتظر قليلًا... دعني أجرب أمرًا وربنا يسهل.

يخرج جميل هاتفه ويطلب رقمًا ما:

- مرحبا يا حضرة اللواء.

- .....

- أدرى أنني مهمل في السؤال... سامحني.

- .....

- أريدك في أمر هام جدًّا، متفرغ الآن؟

- .....

- ألف مبارك... لا مشكلة.. سنأتي لحضرتك غدًا آخر النهار.

تجلس نادية في غرفتها، تسمع جرس هاتف زوجها النقال بالخارج ثم تسمعه يرد عليه ويتجه للشرفة، تبتسم بهدوء لسذاجة زوجها الذي رغم تقدم سنه يهوى حركات المراهقين ويعشق إثارة غيرتها، وتعشق هي كذلك مجهوده الدؤوب في الحفاظ على حرارة مشاعرهما فترفع صوتها قائلة:

- أرسل لها سلامي.

فيبتسم لها ويومئ برأسه ويدخل للشرفة فتغلق باب الغرفة عليها بهدوء، وبسرعة تفتح دولابها وترفع بعض الملابس المطوية في الرف السفلي ليظهر من تحتها فراغ يدل على انكسار جزء خشبي داخل الدولاب لم تصلحه، بل على العكس عاملته كمكان سري وأخفته بوضع الملابس غير المستخدمة كثيرًا فوقه، وفي كلّ الأحوال زوجها ليس هو من يرتب الدولاب، بل ترتبه دومًا أمامه لمنع تلك الفكرة من الوصول لذهنه.

تُخرج كيسًا قماشيًا صغيرًا يغطيه التراب من كلّ جهةٍ فتحاول إزاحة التراب عنه، ثم تدسه في حقيبة يدها الجلدية، وحرصت على أن يكون في أسفل الحقيبة وأغلقتها ووضعتها في مكانها الطبيعي، ثم أمسكت بهاتفها واتصلت برقم ما واستمر الجرس في الرنين دون إجابة من الطرف الثاني، حتى فصل فكررت المحاولة عدة مرات دون أيّ نتيجة، ولم يوقفها عن التكرار سوى سماع صوت إغلاق باب الشرفة فأغلقت الهاتف ووضعته في الحقيبة، وتمددت على الفراش وبدأت تقرأ من كتاب كان على منضدة بجانبها فدخل زوجها الغرفة؛ فابتسمت فبادلها الابتسام وهو يضع نظارته وهاتفه على المنضدة بجانبه ويستلقي بجوارها:

- قل لها فلتبكر مهاتفتها، نحن كبار السن وننام مبكرًا.
- أنتِ الكبيرة، أنا ما زلت شابًا.
- إذًا يا شاب فلتذهب لابنتك غدًا وتأخذها للمشفى.
- سأصبح جدًّا ثانيةً يا نادية.
- نعم، ولتذهب لحبيبتك بحفيدك الجديد.
- أنتِ حبيبتي.

قبّل جبينها ونام فتنهدت في سعادة وتمنت لو كان أكثر تفتحًا لتتناقش معه في كلّ ما يشغل بالها ولا تخبئ أيّ شيءٍ عنه، ثم قالت بصوتٍ منخفض:

- ماذا سنفعل، الحلو لا يكتمل.

(٢٠)

استيقظ أحمد صباحًا من نومه متعب الجسد، كان نومه متعبًا بشدة فقد استيقظ عدة مرات؛ بسبب هذا الكابوس الممتد الذي ما يلبث يهرب منه بالاستيقاظ حتى يجد نفسه وقع في بر اثنه مرةً أخرى بمجرد استسلام عينيه للنوم الذي افتقد التمتع به أو الشعور بوجوده في حياته منذ عدة أيام.

سمع أحمد صوت طرقات على الباب فتهلل وجهه وظن أن ندى عادت؛ فهي الوحيدة التي تطرق باب غرفته؛ فركض نحو الباب سعيدًا ليصدمه أن الطارق هو حسن الذي استأذنه في الدخول لغرفته فسمح له على مضض.

- أريد الحديث معك.
- ألم تبكر بشكل مبالغ؟
- ألم تكن أنت من تبحث عني من قبل؟
- ولم أعد.
- ولكني الآن من يريد الحديث معك.
- إذًا انتظرني حتى أغتسل و أفيق.
- سأعد كوبين من الشاي باللبن.
- أتمزح؟
- ألست أخي؟
- حسنًا يا حسن.. افعل ما تشاء.

يخرج أحمد من غرفته الغارقة في الفوضى فيهمُّ حسن بالخروج خلفه ولكن يلمح الكثير من الأوراق على الأرض، ومنها أظرف حمراء يعرف سرها؛ فلملم الأوراق كلها ورتبها دون أن يطلع عليها ووضعها على المكتب الفارغ، ثم خرج من الغرفة متوجهًا للمطبخ.

******

يستيقظ سعد على صوت طرق شديد على باب الشقة؛ فيهرع نحو الباب متوقعًا مصيبة جديدة فيجد طفلًا صغيرًا يقف أمام الباب.

- ما كلّ هذا الضجيج؟
- حضرتك نومك ثقيل.
- نعم؟
- جدتي قالت لي ألا أترك الباب قبل أن أوقظك.
- جدتك من؟ ماذا تريد يا صغير؟
- حضرتك عمي سعد؟
- أتوقظني لتسألني عن اسمي؟ أتدري لو لم أكن "سعد" أو كنت "سعد" آخر غير الذي تريده ماذا سأفعل بك؟
- لا أفهم.. أهذا يعني أن حضرتك عمي سعد أم لا؟
- نعم أنا زف... سعد.
- تفضّل هذا و اقرأ الورقة المطوية معه أولًا، و افعل كالمكتوب تمامًا.

وضع الطفل كيسًا قماشيًا وورقةً في يده وركض نحو السلم غير منتظر أيّ رد؛ فاندهش منه سعد، ثم دخل المنزل وأغلق بابه وفتح الورقة وكان بها الآتي:

"صباح الخير يا سعد يا بني، كنت سآتي إليك اليوم ولكن ابنتي أنجبت مبكرًا قبل المنتظر، فأعطيت الأشياء لسامح حفيدي قبل أن يذهب للجيران ليعطيها لك. مع التشديد عليه بألا يفقدها وإلا عوقب بشدة، مع الوعد كذلك بدراجة له إن نجح في إيقاظك من نومك الثقيل وإعطائك الأمانة تلك. المهم ألا تفتح هذا الكيس إلا مع أحمد، المحتوى هام جدًّا وأعطته لي أمك قبل وفاتها، وكان محور كلامنا قبل الحادث. احترس يا بني من الغرباء، حفيدا عزام يتربصان بكم للانتقام لأبيهما، هما قادران على هذا ولكنهما يخافان "رؤوف" لذا فوارد أن يؤذياه فيكم ليكسراه.. هذا الكلام يجب أن يعرفه أحمد وأمه وأخوته، اذهب لهم سريعًا... جارتك نادية".

******

يُطرق باب شقة حلمي وفكرية بعنف فتهرع فكرية تاركة أخاها يحاول إنقاذ عادل، بينما تغرقه ندى بنظرات قلقة دامعة. تغلق باب الغرفة خلفها بإحكام ثم تتنفس بعمق وتتحرك بهدوء وثبات نحو الباب وتفتحه لتجد آخر من كانت تتوقع أن تراه يومًا، خطيبة أخيها السابقة التي كسرت قلبه في وقت متزامن مع نكسة أبيها قبل موته، فكانا معًا السبب الذي دعاه ليهجر مصر

وبالتالي تذهب معه رغمًا عنها لبلاد لا تعرف لغة ساكنيها، نظرت لها شزرًا وسألتها بصوت منخفض:

- سبحان الله على الدنيا الضيقة، لماذا تذكرتنا فجأة يا "هانم"؟
- أنا دائمة الحضور لهنا وها أنا يسعدني الحظ أخيرًا.
- مرت عشرة أعوام، ألم تملي؟ كم أنت صبورة!
- أخوك موجود؟
- كم أنت متبجحة، كيف بعد ما حدث تسألين عنه؟
- وكيف لأمثالك من بلا قلب أو إحساس أن يقدروا المشاعر التي كانت بيننا؟
- إذا كانت تلك المشاعر غالية هكذا لمَ ألقيتِها بالتراب؟ على كلّ حال لقد أوجزتِ حين قلتِ "كانت"، لذا فلتنسينا وارحلي.
- حلمي هنا يا فكرية؟
- هذا لا يعنيكِ.
- لن أرحل قبل مقابلته، فلتنادي عليه أنت أفضل من أن أرفع صوتي ويسمعنا الجيران.
- ولمَ كسرتِه إذا كان يهمك هكذا؟
- لو نائم سأوقظه ولو غير موجود سأنتظره.
- ارحلي أفضل لك.
- يا حلمي.
- لقد حذرتك.
- يا حلمي.... آه..

- أنا حذرتك.... ليست فكرية من يتم عنادها.

تسقط الفتاة على الأرض بينما يخرج حلمي من الغرفة فيركض نحوها ويجلس على ركبتيه:

- ابتسام... ردي عليّ يا بسمتي.

******

تشعر ندى بشيءٍ من الهدوء بعد أن رأت ملامح أخيها الصغير هدأت واستكانت، كادت أن تسأل حلمي تفسيرًا ولكن الجلبة التي لحقت بخروج فكرية من الغرفة جعلته وقتها يشير لها بالصمت دون أن ينتبه أنها مكمّمة ومجبرة على ذلك دون أيّ شيء. ثم يهمس في أذنها بكلمة واحدة:

- لا تخافي.

قبل أن يركض للخارج ليتبين ما يحدث، نظرت لأخيها مجددًا فوجدته هادئًا فتمددت على الأرض ولم تبال بأيّ شيء، وبدأت في الدوران والتدحرج كالأسطوانة حتى وصلت له، وظلت تبتعد وتقترب لتصدمه عدة مرات ليستيقظ، وكان لها ما سعت إليه وبدأ يستفيق فابتسمت، كان قادرًا على الكلام ولا يراها على عكس حالها فبدأت تفكر في أنها تحاوره لعلها تحفز طاقته، وقد كان فعلًا فقال بصوت هامس:

- أنت هنا يا ندى.. كنت أعرف أنك ستأتين.

ثم دار حوارهما بعد ذلك بدون أيّ كلمات منطوقة.

- حسنًا لن أتكلم بصوت... لكن كيف نفعل ذلك؟

- سأقول لك يا حبيبي.. حين نخرج من هنا.
- لقد ظننت أنني مت.
- بعيد الشر عنك... لا، أنت في خير حال.
- أنا أحبك جدًّا.
- و أنا أيضًا أحبك يا عادل.. أتعرف هؤلاء الناس؟
- لا.
- قل لي ماذا حدث معك.
- لقد حدثت أشياء كثيرة جدًّا، أولًا..
- انتظر.. أظن هناك من يقترب.. سأسمع الحكاية كلها حين نخرج من هنا.. الآن فلنصمت، و أنت عد كما كنت، وكأنك نائم وسنرى ماذا سنفعل.
- حاضر.

(٢١)

يقابل أحمد أمه بعدما خرج من الحمام فيزيح وجهه الجهة الأخرى متوجهًا لغرفته؛ فتقول في أسى:

- شكرًا يا أحمد! لهذا أردت أن أحدثك منذ فترة قبل عودة حسن، ولكن وفاة عمتك غيّركلّ شيء، يا ليتني مت قبل أن تعاملني هكذا يا ابني!

تدمع عيناه وهو مولٍ ظهره لها ويتحرك بثبات نحو غرفته، بينما ينتفض من الداخل حيرةً وغضبًا من نفسه ومنها، ويدخل غرفته، يخرج حسن من المطبخ حاملًا صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاي باللبن، ويُقبّل رأس أمه وهو يشير لها بأخذ كوبها.

- لا تحزني يا أمي، هو غاضب قليلًا ولكنه حين يهدأ ويعرف ويفهم كلّ شيءٍ سيعتذر لك بنفسه.
- أتظن ذلك يا حسن؟
- مؤكد.
- ألم تعرف شيئًا عن أبيك؟
- ألم يعد أمس؟
- لا، وأغلق هاتفه المحمول.
- أتظنينه خُطف هو الآخر؟
- أضحكتني، بل هو غاضب أيضًا، ولكن غضبه لأنه يعرف.
- عمومًا سأجلس مع أحمد الآن وسأحكي له كلّ ما أعرف.

- و أنا سآتي لكما بعد قليلٍ وسأكمل لكما ما ينقصكما من معلومات.
- جيد.

يدخل حسن غرفة أحمد دون أن يطرق الباب هذه المرة بالتزامن مع صوت قرع جرس الباب بشدة؛ فتهرع نبيلة إلى الباب متوقعة الأسوأ؛ فتجد "سعد" يلهث بعنف.

- ما بك يا سعد؟
- أحمد هنا؟
- نعم، مع حسن.
- جيد.
- ماذا حدث؟
- لدي كلام كثيرومهم لهما.
- خيريا بني، أقلقتني.
- و أنت أيضًا يجب أن تكوني معنا يا عمتي نبيلة.
- عمتك؟ لماذا دعوتني هكذا؟
- لأنني عرفت أنك قريبتنا.
- وعرفت مِن مَن؟
- من أوراق أمي رحمها الله.
- و أين تلك الأوراق؟
- معي.
- هل أحمد عرف؟

- ليس بعد.
- ولكن كيف؟
- لا يهم كيف، هناك ما هو أهم لنتكلم عنه الآن، أخالي رؤوف هنا؟
- لا... لماذا؟
- يجب أن يحضر.
- لا أعرف عنه شيئًا اليوم.. قل لي فقط ما الأمر يا سعد؟
- حفيدا عزام.

فقدت نبيلة وعيها بمجرد سماع هذا الاسم؛ فنادى سعد مذعورًا أحمد الذي خرج بسرعةٍ هو وحسن وتفاجآ بما حدث، وحملاها معًا نحو الغرفة الأقرب وهي غرفة أحمد، ووضعاها على سرير عادل المنظم منذ عدة أيام لعدم وجوده، وجلسا حولها محاولين إفاقتها وأحمد يدعو دامع العينين ألّا تكون تلك بداية غيبوبة أخرى وهي حزينة منه.

******

في قاعة الانتظار بالمطار يجلسان متجاورين وعيونهما دامعة.

- لماذا يا أنس؟
- لا يوجد حل آخر يا آمال.
- هل هانت عليك نبيلة؟
- رؤوف سيرعاها جيدًا.
- ولكنها تحبك أنت.

- مع الوقت ستنساني وحب رؤوف لها سيعوضها.
- لمَ تلك القسوة يا أخي؟ لم تكن كذلك.
- نحن لم نكن شيئًا مما ظنناه عن أنفسنا، أبوكِ ربى مجموعة أسود تربية قرود.
- وها نحن عرفنا إمكانياتنا. لماذا نفترق؟
- لأن بلدنا تنكر ماهيتنا.
- ليس نكرانًا قدرما هو جهل، ويمكننا أن نعالج ذلك.
- مطلقًا، تجربة الناس مع ثروت عزام والدجالين والنصابين ستطاردنا.
- الحياة لن تزدهر لمجرد رغبتنا بهذا.
- لم تفهميني يا آمال، سأسافر لأدرس و أفهم أكثر عن نفسي وعنّا قبل أن أعود إلى هنا أطالب الناس بتقبلنا أو أجبرهم على ذلك.
- وما ذنب نبيلة؟
- لا ذنب لها، ولهذا سأجنبها الشقاء معي.
- أأخبرتها بذلك؟
- لا.
- وستتركها دون أن تفهم لرحيلك سببًا.
- أفهميها أنت، لن أستطيع وحدي، إذا دمعت أمامي بسببي قد أنتحر.
- أتحبها هكذا وستكسرها؟
- صدقيني هذا لمصلحتها.
- مصلحتها من وجهة نظرك أنت.

- أنت منفعلة فقط، مع الوقت ستقدرين وسترين بعينك.
- لم أقتنع.
- المهم أن تكوني معها في تلك الفترة.
- ولكن؟
- أرجوكِ يا آمال.
- أمرك يا أنس.
- رؤوف أيضًا سيمكث قليلًا حتى يتقبّل أن يعيش معها رغم الذكريات.
- أنا لا أعرف كيف تفكروتقرر مصائر أحبائك وحدك.
- أنا أؤسس لمستقبل أفضل لأمثالنا من أبنائنا وأحفادنا بعدنا، نحن لسنا عاهة بالمجتمع، عليهم أن يتقبلونا
- نحن نعيش جيدًا.
- تقصدين مختبئين جيدًا، فلتجربي إشعال شعلة صغيرة في يدك هنا، سيعتبرونك مصدرتهديد قومي وقد يسجنونك في ثلاجة.
- أتسطيع تحمل أن يتزوج أخوك حبيبتك؟
- بالطبع لا، ولكنني أدري أنها ستعيش بشكل أفضل معه، هو أيضًا يحبها مثلي منذ زمن، وتقبّل خطبتي لها قديمًا، لا تظلميه معنا.
- ولكنه ليس مثلنا.
- هو أخونا يا آمال و إياكِ أن تعيدي تلك الجملة ولو لنفسك.
- لكن.

- لا لكن، وحتى يقرر رؤوف الزواج بها أستأذنك أن تكوني المرسال بيننا حتى تعتاد هي على غيابي وتستسلم للو اقع.
- كما تشاء.. سأفتقدك يا أنس.
- و أنا كذلك يا آمال.

(٢٢)

تجلس فكرية على الأريكة ناظرة باحتقار لأخيها الدامع بجانب محبوبته السابقة الغائبة عن الوعي على الفراش.

- ما كلّ هذا التأثر يا حلمي؟ أنسيت أنها تركتك؟
- تركتني لأنني أخفيت عنها حقيقتي.
- حقيقتك لا تخيف أو تذل لتتركك بعد معرفتها.
- ولكن حين يمر على علاقتنا عامان ستكسر تلك الحقيقة كلّ الثقة بيننا.
- ولماذا أخفيتها؟
- أخافتني فكرة الفراق.
- خبّأت عنها حتى لا تتركك ثم أخبرتها لأنك تحبها فغضبت لإخفائك عنها الأمر فتركتك، و أنت سامحتها لأنك خبأت عنها في البداية، ما تلك المتاهة!
- اسكتي يا فكرية.
- حسنًا.
- ماذا فعلتِ لها؟
- .....
- فكرية انطقي.
- ألم تقل اسكتي؟
- لا تستفزيني، أنا مستاء منك جدًّا.
- كيف تستاء مني بعد أن بحثت عنك من بلد لبلد دون أيّ تقدير.

- تقدير لماذا؟ لجنونك وطموحاتك الغريبة؟
- الآن أصبحت طموحاتي غريبة؟ ولماذا إذًا عدت معي من إيطاليا وطاوعتني؟
- لأني آخر من تملكين بالدنيا، ولن يحميكِ من جنونك سواي.
- كم أنت حنون!
- فكرية ماذا فعلتِ بها؟
- لا تقلق هكذا، لقد أجبرتها أن تنام لأخلص منها حاليًا.
- ثم؟
- أدخل حلمها وتحدثا بالداخل، لدي الآن أشياء أهم لأنتبه لها، وحين تنتهي أخبرني وسأوقظها.
- إياك أن تعذبي "عادل" و"ندى" في هذا الوقت.
- لقد انتهيت من استخدامهما كمصدر معلومات، الآن سيلعبان دورًا جديدًا.
- أيّ دور؟
- رهائن.
- فليكن يا فكرية... لكن اعلمي، أيّ حركة غدر سأمنعك من أن يغمض لك جفن طوال حياتك.
- لا تنفعل هكذا، ربما طموحي أكبر لكن غايتي الأولى لا تشمل أذاهما.
- جيد أن ما زال بك بعض ضمير.
- أتمنى أن تقدر هذا مستقبلًا.
- سنعرف وقتها.

استلقى حلمي بجانب ابتسام وأمال رأسه تجاه رأسها بحيث يتلامسا، ثم أغمض عينيه محلقًا بداخل حلمها، بينما أخته تنظر له بضيقٍ ولومٍ صامت. ثم زفرت بضيقٍ وخرجت من الغرفة لتدخل الشرفة بدلًا من الغرفة المجاورة لتجلس بها وتفكر وحدها.

******

تأخر حلمي وفكرية فبدأت ندى تخطط لكيفية خروجها هي وأخيها سالمين، ظل أخوها يعبث معها ويعيقها بالتعليق على أيّ فكرةٍ تخطر في بالها؛ فطلبت منه أن يسمع وهو صامت ولكنها كانت كمن يطلب المستحيل؛ فقد كان سعيدًا بشدة بكشف خبايا من أمامه دون كلمات؛ فطلبت منه أن يركز أكثر فيمن خارج الغرفة ويعرف فيما يفكرون؛ لذا انشغل عنها في تركيز قدرته على غيرها مما ساعدها على إكمال التفكير في وضعهما.

فكرية تتحكم في الأفكار وحلمي يشكل الأحلام لذا لا خطر من هذا الحوار الهامس بينها وبين أخيها، فقط عليهما التمثيل أكثر بنومهما. فكرية أخذت بعض المعلومات الداخلية من عادل ولكن لحسن الحظ كانت ندى تحرص على تجنيب عادل أيّ نقاش أو احتدام يحدث في البيت عندهم؛ لذا عادل أصبح موردًا شديد الضعف في كشف الأسرار وهي واثقة من هذا.

عادل اكتشف قدرته في قراءة الأفكار والتواصل بلا كلمات وينميها الآن؛ لذا عليهم الانتباه له مستقبلًا بشدة أو محاولة جعله ينسى تلك الفترة والتجربة لحمايته من الإضرار بذاته مثل أحمد قديمًا، ربما لم تعش الأمر ولا

تدري كيف أنسوه ما حدث في بيت الشرقية ولكن تدري أن موقفًا طفوليًا غير رشيد في التعامل مع القدرة هو السبب.

هي الوحيدة القادرة على كشف الأماكن والأشخاص عن طريق لمس آخر ما لمسه وتعقب أثره الإكتوبلازمي. ولكن ما كان لها أن تأتي وحدها خالية من أيّ وسائل دفاع لتقع في شباك فكرية الذهنية. كيف الآن ستصل لأيٍّ من أخويها أو والدتها لتبلغهم بمكانها. هاتفها المتنقل أُخذ منها أيضًا فلا فائدة من كلّ تلك القدرات والمعلومات التي جمعتها لهم الآن.

وجدتْ "عادل" يعود لها بفكره:

- ندى.
- نعم يا عادل.
- البنت فقط بالخارج.
- و أين الولد؟
- لست أدري، لا أجده.
- حسنًا، وفيم تفكر البنت؟
- تفكر في ثأرها من أبي وتحقيق حلم أبيها، ماذا يعني هذا يا ندى؟
- لا أعرف يا عادل.

أفاقت نبيلة بعد أن وضع أحمد عطرًا ذا رائحة نفاذة بالقرب من أنفها فحمد ربه كثيرًا وقبّل يديها كثيرًا متأسفًا لها؛ فقالت مبتسمةً بضعف:

- يبدو أن كلكم اتفقتم على التخلص مني.

أحمد وحسن في صوت واحد:

- لا والله أبدًا يا أمي.

فاحتضنتهما وأشارت لسعد ليقترب منها أيضًا وضمته في حضنها معهما فأجهش في البكاء؛ فتركا حضن والدتهما له حتى تماسك واعتذر لها فقالت له:

- أمك كانت غالية عليّ جدًّا يا سعد... رحمها الله.

فردد الجميع آخر كلمتين وقامت وخرجت من غرفتها واعدة إياهم بتحضير فطار ملوكي يستحقونه جميعًا رغم أيّ شيء وقبل كلّ شيء. وخرج سعد خلفها متوجهًا للحمام فغسل وجهه وعاد كأن شيئًا لم يحدث. نظر أحمد على الأرض فلم يجد الأوراق التي تركها فبحث عنها بعينيه في باقي الغرفة؛ فقال حسن:

- لقد رتبتهم لك وتركتهم على المكتب.

استغرب أحمد ولكن لم يعلق، ثم زادت دهشته حين توجه سعد للمكتب ووضع الكيس القماشي الأسود والورقة فوقهم، ونظر لأحمد بابتسامة واسعة قائلًا:

- الآن يمكن أن تحل أحجيتك.
- ما هذا؟
- أجزاء جديدة من الأحجية، ولمَ تظن أن كلّ القطع لديك وحدك؟

فقال حسن متممًا:

- وأمي عندها استعداد لتكمل أيّ جزء ناقص وتساعدنا لنفهم هذا الفيلم الهندي.

ضحكوا جميعًا وارتفع صوت نبيلة من الخارج تدعوهم للخروج من الغرفة ليتناولوا الفطور معًا.

(٢٣)

تجلس نادية وحدها في غرفة الانتظار، لم يبد عليها القلق لولادة ابنتها بل كانت شاردةً بشدة بعد أن اعتذر زوجها عن الحضور معها لأمر هام؛ فتذكرت حوارًا قديمًا داربينها وبين صديقة عمرها المتوفاة آمال.

- بسهولة طلقك؟
- يكفيه... تعذب معي يا آمال.
- كيف؟
- كذبي عليه وإحساسه الدائم بوجود شيء غير طبيعي أرعبه.
- لمَ لم تصارحيه؟
- مخه سميك، لا يقبل غير المحسوسات والمرئيات وإذا عرف قدراتنا سيعاملنا كالمسوخ.
- لتلك الدرجة؟
- قال عليّ شيطانة.
- وستسكتين على هذا؟
- بالطبع، لقد زوجنا أبناءنا وسافروا، هكذا يمكن أن يرتاح مني ومن التفكير بأمري.
- وحبك له؟
- ولّد ذكريات جميلة ستدفعني دومًا للابتسام والدعاء له بالخير.
- وماذا ستفعلين الآن؟

- لقد ترك لي البيت مع نفقة شهرية جيدة، أفكر أن أسافر أسبوعًا لإيطاليا.
- ولمَ إيطاليا تحديدًا؟
- نبيلة حكت لي عنها كثيرًا وجننتني بها لذا أنوي أن أزورها وأزور "أنس" و"حسن".. اشتقت لهما جدًّا.
- يعجبني انطلاقك.
- دعونا نعيش لمرة واحدة بمتعة.

******

يجلس جميل وحازم ورؤوف في صالة بيت حازم والجدية ترتسم على ملامحهم جميعًا.

- رؤوف: أشكرك جدًّا يا حضرة اللواء على سعة صدرك وتقبلك لمقابلتي رغم الصورة السيئة التي لديك عنّا.
- حازم: ليس موضوع صورة ولكن صعب بعد هذا العمر تخيل أن هذا حقيقي وليس خيالًا علميًا يضحكون به على عقول الأطفال والمراهقين، والأصعب أنه موجود في مصر.
- رؤوف: هو غير منتشر جدًّا في مصر، وقد طلبت من جميل أن يكون موجودًا ليثبت لك بنفسه.
- جميل: منذ أمس وأنا مع رؤوف وحكى لي كلّ شيء، وكنت مثلك بالضبط مندهشًا وغير مصدق، وشعرت كم ظلمت آمال رحمها الله.
- حازم: إذًا احكوا.

- رؤوف: الموضوع ليس مستحيلًا، يقال أننا قديمًا كنا كلنا هكذا لكن مع التحضر والتكنولوجيا استغنينا عن حواس كثيرة، العضو غير المستخدم طويلًا يضمر، جيلًا بعد جيل وهذا الأمر كاد أن يمحى، إلا من بعض الأفراد. هنا في مصر عائلتان فقط.
- حازم: أيّ أن هناك غيركم؟
- رؤوف: نعم، لكن المشكلة أن العائلة الأخرى ضميرها نائم ولا مانع لديهم من الاستغلال السيئ للأمر.
- حازم: قُل لي أولًا، لماذا أنت ليس مثل عائلتك؟
- جميل: هذا عائد للجينات.. و أبنائي مثلي لا كأمهم.
- رؤوف: ولا أنا ولا أولادي.. فقط أنس أخي و ابنه حسن وآمال وزوجتي.
- حازم: وما دخل زوجتك في الجينات؟
- رؤوف: لأنها ابنة عمتي، وأخوها حين اكتشف ذلك في نفسه انتحر.
- حازم: وماذا كانت غرابته أو صفته؟
- رؤوف: معرفة المستقبل.
- جميل: ومات؟
- رؤوف: لم يحتمل كم الدمار بالمستقبل وقتها، أي الحاضر الآن، فرمى بنفسه في النيل.
- حازم: وزوجتك؟

- رؤوف: تستطيع التواجد في مكانين معًا، ولكني منعتها من فعل هذا منذ زواجنا، أو بالأصح أنكرت أيّ دخلٍ لنا بهذا السيرك وأخفيت كلّ شيءٍ عن أبنائي وأصررت أن نكون طبيعيين.
- جميل: ولهذا سعيت عدة مرات في إبعاد أحمد عن سعد؟
- رؤوف: خفت أن تحكي له آمال أو تحكي لسعد فيحكي له.
- حازم: كيف يمكنني مساعدتك؟
- رؤوف: ثروت عزام.
- جميل: المليونير صاحب شركات العزبة؟
- رؤوف: نعم.
- حازم: لقد مات مفضوحًا، ولكن أملاكه كلها كما هي حتى عودة ابنيه من الخارج.
- رؤوف: عادا.
- جميل: ولمَ لم يستردا أملاك أبيهما؟
- رؤوف: يريدان الانتقام مني أولًا لأنني من فضحته.
- حازم: أمتأكد من هذا الكلام؟
- رؤوف: كما أنني متأكد أنهما من خطفا "ندى" و"عادل" وقبلها قتلوا آمال.
- جميل: آمال ماتت بنارها.. لم تستطع التحكم بها.
- رؤوف: قليلًا جدًّا ما تفقد السيطرة ويكون أثناء توتر، لكن طول الوقت مسيطرة على حاستها جدًّا، أنا متأكد أن بنت ثروت هي من دست في بالها فكرة إحراق ذاتها، أفكارها سوداء كأبيها ولن أتركهما أبدًا.

تفتح ابتسام عينيها فتجد أن الظلام يحيط بها من كلّ الاتجاهات، تذعر، تصرخ، تقف بصعوبة وتركض بلا هدى فتصطدم بجدار قاسٍ، تقع، تبكي، ثم تسمع موسيقى خفيفة تأتي لها من بعيد؛ فتسير على هداها في الظلام وهي تمد يدها أمامها حتى لا تصطدم بشيءٍ آخر، تسير حتى تصل لمكان لا يميزه شيء عما كانت به، وصوت الموسيقى يأتيها من كلّ الاتجاهات فتيأس وتجلس على الأرض وتعود للبكاء.

- ابتسام.
- حلمي؟
- أخيرًا وجدتك.
- أين أنت؟
- حولك.
- لا أراك.
- ولن تستطيعي.
- لماذا؟
- ستخافين.
- أخاف؟
- مثلما خفتِ قديمًا.
- ولكني لم أخف.
- إذًا لماذا ابتعدتِ؟

- احتجت فقط أن أفكر، ولكنك أنت من اختفيت قبل ردي.
- لم أستطع تحمل فكرة أن ترفضيني.
- كنت مخطئًا.
- كيف؟
- لقد بحثت عنك كثيرًا يا حلمي ولم أفقد الأمل.
- وتزوجتِ غيري.
- بعد عشر سنين.
- ولمَ تذكرتِني بعد زواجك؟
- لم أنسك قطّ.
- كيف؟
- أتدري من زوجي؟
- وكيف سأعرف؟ ولماذا؟
- إنه جميل حشمت طليق آمال الهجيني.
- آمال الهجيني زوجة أبي الأولى؟
- نعم.
- ولماذا وصلت له؟
- بحثًا عنك.
- أنتِ مجنونة.. إنه بعمر أبيكِ.
- و أنت ظالم، ظلمتنا بتسرعك.
- كانت حياتي تنهار.

- لموضوع والدك؟
- نعم.
- ظننت أنني سأتركك لهذا؟
- كلّ شيء انهار فجأة، وجب عليّ الابتعاد لاستعادة توازني.
- واستعدته؟
- نعم.
- حسنًا أنا طُلِّقت.
- ماذا؟
- عد لي يا حلمي.

(٢٤)

أنهى سعد وأحمد وحسن إفطارهم ودخلوا الغرفة بينما حرصت الأم على إعطائهم بعضًا من الوقت وحدهم بعمل شاي قبل أن تدخل لتجلس معهم لمساعدتهم في كشف غموض حياتهم.

جلس الثلاثة على الأرض ووضعوا جميع الأوراق وتراث الماضي في المنتصف، وتردد أحمد قليلًا ثم قال أنه سيبدأ من النهاية، فأخذ خطاب نادية لسعد الذي تفاجأ أن به جزءًا مطويًا لم يقرأ.

"صباح الخير يا سعد يا ابني، كنت سأمر عليك ولكن ابنتي أنجبت اليوم طفلها الثاني فاضطررت أن أرسل لك "سامح" حفيدي بتلك الأشياء، لقد تركته عند الجيران إن أردت أن تترك لي شيئًا، إنه أمين ولكن يجب أن تعطيه في مقابل خدماته مكافأة قيمة كوعدي له بشراء الدراجة التي يتمناها، المهم لا تفتح الكيس بدون أحمد، هناك أشياء مهمٌّ أن تعرفاها معًا،. وكلامٌ مهمٌّ جدًّا كتبته أمك لكن لم تحدد كيف ومتى تعلمكم به وكنا نتناقش بشأنه قبل أن يفاجئها الموت، انتبه يا بني من أيّ غريب يقترب منك، يجب أن تتأكد من أصله، حفيدا عزام يريدان الانتقام لأبيهما من عائلتكم وأن يعيدا هيبتهم القديمة، هم قادران على هذا لكن يخافان من أن يفضحهم رؤوف أبو أحمد ولهذا يؤذونه شخصيًا أو يؤذونه بكم ليكسراه. هذا الكلام يجب أن يعرفه أحمد، وأمه وأخوته يعرفونه، اذهب لهم بسرعة.. جارتك نادية.

ملحوظة: أمك لم تفكر قط في الانتحار، وحين قالت في التليفون: "ماذا يمكن أن أفعل، هل موتي سيرضيهم". التي تم تفسيرها خطأ في تقرير الطب

الشرعي، كانت تتكلم بضيق عن مضايقات الجيران فقط، لكنها كانت تحب الحياة والسفر فلا تظلمها وحاول تقدير تميزها ومعاناتها لإخفائه احترامًا لوالدك وأخيها".

- أحمد: من حفيدا عزام؟
- حسن: دعني أحكي لك من البداية يا أحمد.. جدي محمد والد أبي كان له أخت وصديق عمره...

يقطع كلامه دخول الأم حاملة أكواب الشاي وتجلس على الفراش تنظر لهم وللأوراق بينهم.

- الأم: شباب، ما ستعرفونه الآن سيدمركلّ القديم.
- أحمد: حسن قال هذا أيضًا أول مرة رأيته.
- الأم: قبلما تقرأ تاريخنا يجب أن تعرف أنك مميز مثلنا، وأننا لسنا معيوبين، نحن مميزون، وأبوك أنكر أخاك "حسن" لأنه وجده مميزًا كعمك أنس، وهو لا يعرف أنك أنت وندى وعادل مميزون أيضًا حتى لو لم يكن هو كذلك.
- أحمد: مميز كيف؟
- الأم: تختفي.
- أحمد: ماذا؟
- الأم: يومًا ما قديمًا كنا في الشرقية أنا وعمتك آمال وأنت وندى وسعد، تشاجرت أنت مع سعد وضربته، وخفت من أن أضربك فاختبأت واختفيت يومين، وبقيت بيننا تأكل وتشرب خلسةً دون أن تدرك أنك مختفٍ، فعمتك أشعلت البيت وخوفك من الحريق غطى على خوفك من العقاب وجريت

خارج البيت لحضني.

- سعد: لهذا ندى كانت تسألنا عن هذا الموضوع.
- أحمد: ثم؟
- الأم: من ساعتها لغيت أن أعاقبك لأيّ سببٍ وتركت تلك المهمة لأبيك، وعوّدتك أن حضني أمانك فلم تحتج للاختفاء مجددًا.
- أحمد: ولماذا لم تخبريني بهذا حين كبرت؟
- الأم: أبوك إذا عرف بهذا لكان طلقني، إنه حتى الآن يظن أن "حسن" ليس ابنه وأن "أنس" كان زوجي سرًا، لا خطيبي.
- أحمد: لتلك الدرجة؟
- الأم: أبوك يا أحمد لا يكرهنا، ولكنه يشعر بالضعف والعجز والغربة بيننا.
- أحمد: وماذا أيضًا؟
- حسن: نعود للبداية لتوضيح الصورة أكثر، المميزون كانوا جدك "محمد بن قاسم الهجيني" وصاحبه "عزام" الذي تعرف عليه في الصحراء.
- أحمد: صحراء؟
- حسن: قاسم والد جدك حين وجد أبناءه مميزين خاف وأخفى هذا، وقرر أن يئد ابنته ويعزل ابنه عن الناس في الصحراء، ففرت زوجته بالفتاة "زبيدة" لإيطاليا، وجدك وجد نفسه مع أبيه وحدهما، ومات الأب، فبقي وحده وقابل "عزام" الذي كفر بحياة البدو ونوى الذهاب للعاصمة، فتصادقا وذهبا معًا بل وعملا معًا أيضًا.

- الأم: زبيدة أمي رجعت مصر وكانت كأختك تتقفى الأثر فوصلت لأخيها وقالت له كلّ شيء، فصدم ولكن كانت صدمته الأكبر حين وجد "عزام" كذلك، وبعد فترة عزام طلب يدها وتزوجها و أنجبا ثروت و"صالح" و أنا ولكن أبي -عزام- كان ضميره ميتًا وهذا ما أخذه أخي ثروت و ابنته فكرية منه من بعده؛ فأصرت أمي على الطلاق وأخذتني أنا و"صالح".
- أحمد وحسن: عزام جدنا وثروت خالنا؟
- الأم: نعم.. وهذا يعني أنني ابنة عم أبيكم يا أحمد.
- سعد: لا أفهم.
- الأم: لم يأت دورك بعد يا سعد.
- أحمد: كيف تكونون بهذا التعقيد؟
- حسن: وكيف عشتم مع كلّ الأسرار تلك؟
- أحمد: ولماذا تخفون قرابتكم بعضكم لبعض؟
- الأم: قدرنا.. وحفاظًا عليكم.
- حسن: كيف؟
- الأم: غالبًا هناك طاقة غريبة تجذب بعضنا لبعض.
- أحمد: تجذب بعض مَن لبعض؟
- الأم: المميزون يا أحمد... من بين كلّ الناس نقع في عزام.
- أحمد: أكملي.
- الأم: مع الوقت نسيت أو تناسيت كلّ شيء عن ثروت وعشت مع أمي وأخي صالح.

- أحمد: أين أخوكِ صالح يا أمي؟
- الأم: كان يقرأ المستقبل فوجده كئيبًا فانتحر دون أن يخبرنا بتفاصيل ما رأى.
- سعد: بتلك البساطة؟
- الأم: صالح كان ضعيفًا نفسيًا أمام كلّ الضغط الذي نعيش به، خاصة حالة التعتيم لإخفاء تميزنا.
- أحمد: وماذا أيضًا يا أمي؟
- الأم: حفيدا عزام لا يعرفان أنهما من أقاربنا، ولا يعرفان أنهما قتلا أمهما.
- سعد: أم من؟
- الأم: حلمي وفكرية أخواك من أمك يا سعد.

******

يخرج حلمي من الغرفة وينظر حوله فيجد أخته في الشرفة شاردةً فيسرع إليها.

- أيقظي ابتسام من نومها.
- اهدأ يا حلمي.
- أنتِ تدمرين حياتي.
- و أنت لا تبالي بي، وتقودني وكأني مجرد متاع.
- مؤكد تمزحين، إذا لم أبال بك فلماذا أنا هنا الآن؟
- متأخر للغاية، أملاك أبي كانت ستحفظ مكانتنا وسنظل أغنياء ولكنك أصررت أن تكتئب وتبتعد بالفتات وتأخذني معك لصغر سني.
- فيم يفيد هذا الكلام الآن؟

- لا شيء، فقط رغبت أن أعلمك أنني أصبحت حرة، ولم أعد طوع بنانك.
- قولي كلّ ما في بالك يا فكرية.
- سأكلم "رؤوف" وسأخبره بمكاننا وبأن ابنيه معنا، وحين يأتي سأحبسه في أسوأ كوابيسه ونرحل من هنا، وننسى هذا البيت، لا أريد تذكر أيّ شيء. وننهي أوراق استلام الميراث. وخذ مدام ابتسام لإيطاليا وعش هائمًا كما تريد.
- ولماذا أقنعتني بالعودة ما دمت لا تحتاجينني؟
- كانت لي حاجة منك وانتهت، لم أكن أتذكر أيّ تفاصيل عن عائلة الهجيني فتركتك تدلني عليهم من يوم مقابلتك لآمال في إيطاليا بالصدفة، بالمناسبة أنا من جعلتها تحرق نفسها.
- لماذا يا فكرية؟
- أنا أكره تلك العائلة كلها ولولا شفقتي لجعلت ضيفينا الشقيقين يقتلان بعضهما بعضًا.
- ما هذا الشر؟
- يستحقان.
- أنت نسخة أسوأ من أبي، هو استخدم قدرته للنصب وأنت لتعذيب الناس والانتقام، أيقظي ابتسام وبعد إنهاء الأوراق لا أرغب في رؤيتك ثانيةً.

تذهب فكرية للغرفة التي تنام بها ابتسام فيتسلل حلمي بسرعة للغرفة التي بها ندى وعادل.

(٢٥)

تُرهَق ندى من شدة التفكير بلا جدوى وتصاب باليأس ولكن تحافظ على صمتها حتى لا تفزع أخاها الصغير.

يُفتح باب الغرفة فتجد حلمي يدخل بسرعة ويندهش من تغيير مكانها ولكن لم يعلق، بل اتجه لها وفك قيد يدها ودس في يدها هاتفها المحمول الذي أخذته أخته منها، وقال في أذنها بهمس:

- لقد كتبت عنواننا هنا في رسالة على الهاتف، ضعي رقم أبيكِ أو أخيكِ الكبير، محالٌ الهروب من هنا، ربما فكرية لا تقرأ الأفكار ولكنها قادرة على أن تزرع سمًا في الفكر، فإذا كشفتك أثناء الهروب فقد تقتلك أنت وأخاك الصغير تلك المرة.. صدقيني و أنقذي نفسك وأخاك.

يخرج حلمي سريعًا تاركًا إياها في حيرتها التي انتزعت نفسها منها بسرعةٍ لخطورة الوضع، وضعت رقم أخويها أحمد وحسن وأرسلت الرسالة قبل أن تقرأ ما كان بها. احتارت هل تعيد القيود ليديها مجددًا تجنبًا للصدام مع فكرية لو عادت، أم تبدأ في فك وثاق قدميها وأخيها وتبدأ في البحث عن مخارج هذا المكان.

******

ينتفض حسن وأحمد بسبب صوت الرسائل المفاجئ الذي فاجأهما؛ فقاما بسرعة لهاتفيهما وقرآ ما وصل إليهما، ونظر بعضهما لبعضٍ ولأول مرة

يحدث تفاهم بينهما و اتفاق بالنظرات؛ فابتسم حسن بسعادةٍ وأحمد بتقبُّل وضعه الجديد ثم قال في سرعة:

- أحمد: لم ينتهِ كلامنا بعد يا أمي، ولكن الآن علينا الإسراع لمكان عادل وندى.
- سعد: كيف و أين؟
- حسن: سنشرح لك في الطريق.
- الأم: ربنا يحميكم يا أولادي.

******

تقتحم الشرطة بيت فكرية وحلمي، تخرج فكرية من الغرفة محدقةً بالباب الضيق فيسقط كلّ عسكري يتخطاه، ينظر حلمي داخل الغرفة فيجد ابتسام قد استيقظت ولكنها لم تعِ بعدُ بشكلٍ كاملٍ ما يحدث حولها، ينظر لأخته فيجد قطرات العرق تتساقط بغزارةٍ من جبينها ولكنها لم تمنعها في إسقاط أيّ شخص يدخل المنزل، مستغلةً صغر حجم الباب واستحالة الدخول من الشرفة أو أيّ شباك لارتفاع الطابق، وتأكدها بأن الشرطة لم تستعد بالهليكوبتر لاقتحام عادي مثل هذا؛ وذلك يعطيها الوقت الكافي لإسقاط القوة البسيطة القادمة لاقتحام مكان غير مسلح، والهروب قبل وصول أية إمدادات.. بل وستدرب رأسها على التوسع والتحكم في عدة عقول في المرة الواحدة بدلًا من عقل واحد؛ لذا ابتسمت بتهكم ولكن فاجأها خروج ابتسام من الغرفة وخروج عادل وندى من الغرفة الأخرى. لم يجرؤ أحد على التحرك أو الاقتراب منها وهم يرونها تسقط الرجال دون أن يقتربوا منها، ولكن

فاجأها أكثر أن وجدت الباب يخرج من إطاره ويتجه نحوها فتفادته بصعوبةٍ لتجد الكرسي بجانب الباب يتجه نحوها أيضًا، ويدخل حسن وهو يرمقها بعينيه الفاتحتين المحدقتين في عينيها؛ فصرخت:

- ابعد عني يا حسن.
- أنقذي نفسك يا فكرية وتوقفي.
- أنت من سيتألم، لقد حذرتك.
- أنتِ من تدمرين نفسك كأبيك.
- لا شأن لك بأبي.
- أبوكِ كان خالي.

بدأت ترتبك وتقل طاقتها بينما يقترب منها حسن خطوةً أكثر ويفسح المجال من خلفه لدخول غيره.

- ماذا تقول؟
- ثروت أبوك أخو نبيلة أمي، وأمك التي لم تعرفيها من صغرك هي عمتي آمال التي قتلتِها.
- كاذب.
- أنا لا أكذب.. عائلتنا هي الغارقة في الأسرار... أليس كذلك يا حلمي؟
- أنا أول مرة أسمع هذا الكلام.
- إذًا هدئ أختك لتعرفا كلّ التفاصيل.
- والشرطة.
- سأتولى أمرهم.

- وما الضامن لما تقول؟

يدخل أحمد وسعد ونبيلة خلف حسن، بينما بدأت فكرية ترتجف غير قادرةٍ على الوقوف فاحتضنها أخوها. يدخل بشكل مسرحي حازم وجميل ورؤوف فيُصدم حازم برؤية عساكره ممددين على الأرض، ويُصدم جميل برؤية ابتسام وسعد في نفس المكان، بينما يُصدم رؤوف لرؤية أسرته كلها هنا. يغلق حسن باب الشقة وقد دخل الجميع.

- أحمد: أيمكن أن نتكلم بصدق وشفافية قليلًا يا أبي؟

يلتفت رؤوف بدهشة نحو أحمد الذي وجد استجابة غريبة ومختلفة من الجميع حوله.

- أحمد: تعرف أنني يمكنني الاختفاء؟
- ندى: و أنا أتقفى الآثار بذهني.
- عادل: و أنا أسمع الأفكار.
- حسن: و أنا ابنك و أنس كان خطيب أمي فقط في وقت ما.
- نبيلة: و أنك ظلمتني كثيرًا أولًا بشكك فيّ، وثانيًا بمنعك لي من أن أكون على طبيعتي، وكذلك آمال أختك.
- فكرية: كيف تكون آمال أمي؟

يحدق جميل بها باستغراب بينما رؤوف ما زال في صدمةٍ مما سمع.

- نبيلة: آمال كانت زوجة ثروت قبل طلاقها وزواجها من جميل.
- حلمي: ولماذا أخفى أبي هذا عنّا؟

- حازم: لأن أباك أكبر كاذب ونصاب ومخادع في البلد في السبعينات والثمانينات، حتى نحن لم نستطع القبض عليه أو إثبات أيّ تهمة لتلاعبه برؤوس حاملي الأدلة أو ضحاياه.
- حسن: فكرية حمقاء مثله، ظنت أنها ستقهر الكل بعقلها.
- رؤوف: لهذا لم أقابله مباشرة وصممت أن أفضحه بنشر صفقاته المشبوهة بالجرائد دون أن أذكر قدرته، وكنت أعلم أن نتيجة هذا مؤجلة حتى يدرك أبناؤه ما حدث ويشرعون في الانتقام مني، ولكن صدقًا لم يكن سببي هو أذى ثروت، بل رغبت فقط في إيقافه عن استخدام قدرته بشكل خاطئ. فهو أولًا وأخيرًا زوج أختي و ابن زميل أبي المقرب.
- فكرية: ولماذا تقولون هذا الآن وأخفيتموه قديمًا؟
- أحمد: أنتِ من بدأ قبل أيّ كلام بالأذى.
- سعد: وما هي حكاية الأظرف الحمراء والريحان والرسائل؟
- رؤوف: هذه تفاصيل خيانته.
- نبيلة: إذا نطقت هذا الكلام مجددًا و أنت موقن بصدقه فعليك أن تنهي زيجتنا الآن.

يُصدم الجميع بكلام نبيلة فيسود الصمت حتى يقطعه جميل.

- جميل: ماذا أتى بك هنا يا ابتسام؟
- ابتسام: ألم ننفصل؟ لا شأن لك بي أو بأسباب وجودي في أيّ مكان.
- جميل: ما زلت في فترة العدة ويمكنني ردك وعقابك على كلّ شيء.

- حلمي: الأمر لا يستحق كلّ هذا يا أ. جميل.... أنا أشكرك لاهتمامك بها أثناء غيابي وسأعتني أنا بها منذ الآن.
- جميل: ومن تكون أنت؟
- حلمي: صديق قديم لها وزوجها مستقبلًا... أرجوك دع الموضوع ينتهي بهدوء، لقد تركتها بالفعل بلا رغبة في عودتها، أنا الآن من أريدها ولطالما حلمت بها.
- فكرية: حمقى... لقد اكتفيت من هذا السيرك، أعطوني ميراثي وسأرحل للأبد.
- نبيلة: لا يا فكرية.. ابقي معنا.. جدك محمد رباني أنا و"صالح" و"رؤوف" و"أنس" و"آمال" و"ثروت" في بيت واحد... وأنا لا أريد لنا التشتت ثانيةً يا صغيرة.
- فكرية: ولكنني قتلت آمال.
- آمال كانت عزيزة علينا جدًّا، ولكنها نفسها قدر حبها للحياة كانت وحدتها قاسية عليها بعد أن أخذكما ثروت، وأبناؤها من جميل تزوجوا وسافروا، ومنعها رؤوف من زيارتنا أو البقاء معنا بعد تركها "جميل"، سافرت لإيطاليا لعلها تجدكما ولكن حين قابلت حلمي أدركت ذنبها الكبير في تركها إياكما لثروت وسعيها في الزواج مجددًا من شخص غير مميز. قالت لي أنها تشعر أن عقابها سيكون قاسيًا ولكنها لا تعرفه بعد... وقد جاء العقاب على يدك أنت.
- حلمي: فكرية يا صغيرتي، أنا أدرك أن قسوتك وشرك مجرد قناع تخفين به ألمك لنشأتنا كالأيتام في بلد غريب، لا ترحلي، لا أظنك ستسامحين نفسك على ما حدث لأمنا، وأخاف عليك من تأثير الشعور بالذنب وحدك.

سقطت فكرية منهكة باكية على أقرب مقعد فأخذتها نبيلة بين ذراعيها وظلت تربت على كتفها بحنان لتهدئها.

- رؤوف: لكن يا نبيلة.
- نبيلة: رؤوف، لقد احترمت رغبتك كثيرًا حتى أصبح أبناؤنا لا يعرفون أنفسهم وكادوا يُهلكون بعضهم بعضًا، كلّ الأوراق القديمة التي تثبت براءتي وصدقي في غرفة أحمد، اقرأها وحدد هل ستستطيع أن تبقى معنا كما نحن على طبيعتنا أم لا، واعلم أننا نأمل في بقائك معنا، وإذا فضلت حالة الإنكار والحياة في الظلام الرتيب الآمن، فسنرحل أنا والأبناء كلهم لنعيش في مكان بعيد لا يصلك منه شيء عنّا حتى لا نزعجك.
- رؤوف: ولكن...
- نبيلة: أما أنت يا أ. جميل، فاعلم أن آمال احترمتك وأحبتك جدًّا وحاولت أن تحافظ عليك دائمًا بعيدًا عن موهبتها، ولكن تشبيهك لها بالشيطانة وتشويهها عند الجيران قبل تركك للبيت قلل منك كثيرًا في نظرها.. أنا آسفة أني أقول لك هذا الكلام أمام ابنك، ولكن لم تتح لي الفرصة لمقابلتك منذ الانفصال، كما أننا لن نخفي أيّ شيءٍ ثانيةً. وحضرتك يا أ. حازم أظنك أصبحت الآن أكثر انفتاحًا على كلّ من يختلف عنك، مدام نادية سترتاح أكثر الآن عن زمان... شكرًا لمساعدتنا في اللاشيء، أزعجناكم بلا سبب.. لو صبرتم قليلًا لكنا أنهينا الأمر دون إنامة عساكرك المساكين على الأرض.. على كلّ حال فكرية منهكة وسيطرتها شبه زالت عنهم فيمكنك إيقاظهم، وسيتولى حسن

وفكرية محو تلك الذكريات لديهم وقتما تريد، هيا يا شباب نرحل لنترك له أمر الإيقاظ.

خرج الجميع عدا جميل ورؤوف وحازم الذين وقفوا في دهشةٍ غير مصدقين أيًا مما حدث منذ قليل.

(٢٦)

ألقت ندى جسدها على السرير منهكةً بعد تلك المغامرة المتعبة التي انتهت بتحررها في استخدام طاقتها واحتواء طاقة أخيها الصغير حتى لا تفسده أو يسيء استخدامها، لم تعد تخاف أيّ شيءٍ وخاصةً أباها الذي ربما سيعود لصمته يومين آخرين ثم يستسلم في النهاية، إنها فقط تتمنى ألا يشعره الأمر الآن بالمزيد من العجز، ولكن هذا أمر ستتولى أمها العناية به.. تذكرت آخر ما فعلته قبل رحيلها فأخرجت الأوراق من حقيبتها وسعدت أنها أخذتهم مبكرًا، ولم ينتبه أحمد لنقصانهم قبل أن يحرق مع أمها جميع الأوراق بما فيهم الظرف الأبيض الأخير الذي كان يحتوي بعض الأوراق الرسمية لعمها أنس، كعقد شراء شقته وسيارته وأوراق عمله؛ فأرسلوها لأخيه بمصر بعدما نسي حسن أن يأخذهم قبل رحيله.. ستكون تلك الخطابات سرها الوحيد الذي ربما تشاركه مع سعد مستقبلًا لو شعر بمشاعرها وبادلها إياها، لقد طمأنها تاريخهم قليلًا بشأن هذا الأمر فيبدو أن تلك العائلة لا تتزوج من غرباء، وأن أمر تميزها من عدمه لا يعتبر عائقًا، و أبوها وأمها خير دليل.. إنها فقط تنتظر الوقت المناسب الذي ستتحرك فيه مشاعر سعد لها، وحتى حينها ستظل مع تلك الرسائل.

******

عزيزي أنس

لا أدري كيف تمكنت من أن تفعل هذا؟ لم أعهد منك التلاعب بالقلوب وكنت أظن أني كنت أعلمك أكثر من نفسك.. هل كنت حمقاء؟ وهل ما زلت حمقاء لإرسالي كلامي هذا؟ أظن أنني كذلك فعلًا ولسبب غير ما سبق. حمقاء لأني ما زلت أثق أن حبك لي باقيًا بداخلك رغم الرحيل. لقد ترددت كثيرًا قبل كتابة تلك الرسالة وداهمتني شتى الأفكار والمشاعر حتى تمكنت من كتابة هذه الكلمات.

حكت لي آمال عما قلته لها بالمطار، وإن قدرت دو افعك فأنا لا أعلم حتى الآن كيف استطعت أن ترحل دوني أو حتى دون أن تودعني؟ ولكن رغم ذلك أنتظرك فلا تطل الغياب.

حبيبتك / نبيلة

******

أخي وحبيبي أنس

أتمنى أن تكون بخير ووجدت الجامعة التي تدرس ما يفيدنا، مشتاقة لك جدًّا، رؤوف مندهش من سفرك وتركك لنا وحدنا، لكن لا أخفي عنك سرًا، أشعر كأن سفرك أراحه في فرض سلطة غريبة جديدة عليّ، لم أرها لديه من قبل، لقد أصبح يمنعني من أن أكون على طبيعتي، غالبًا ما منعه من تلك الرغبة قديمًا هو وجودك معنا.. لقد توقفت عن مناقشته بعدما تعبت من كثرة الشجار، كما لاحظت اهتمامه بنبيلة التي أشعر كأنها ذبلت وأصبحت دائمة الشرود، وكأنها لم تعد معنا، لذا لم تمنعه هي من هذا الاهتمام

الجديد أو توافقه، أنت تدري كم أحب نبيلة، ولم يمنعني من إبعاده عنها سوى إصرارك أنت بجعله هو يعتني بها لأنني لا أعلم هل ستعود أم لا، وهي وحيدة بعد موت أخيها ورحيل الآخر ولم يعد لها سوانا وتنتظرك، اللهم هون الأيام وطيب قلوبكم وداوي جرحكم.

أختك التي تحبك/ آمال

******

عزيزتي نبيلة

أشعر بألمك يا قريبتي وأختي العزيزة، ولكن عليكِ نسياني فأنا لن أعود، وغاضب بشدة من نفسي لأنني لم أمنع فيض مشاعرك تجاهي أثناء وجودي بمصر وهناك من يحبك من قبلي ويستحقك أكثر مني.

رؤوف يا نبيلة كان دومًا يحبك فلا تبعديه بتمسكك بوهم سيذوب مع الأيام. دعي ما مضى يذهب ويبتعد مثلي وابدئي حياة جديدة، حياة تستحقينها لم أستطع أن أحققها لكِ.

عزيزتي برسالتي تلك أُحلُّكِ من عهدنا وسأعتبرك منذ الحين كآمال أختي وأتمنى أن تقبلي أن تكوني زوجة أخي أيضًا، لن ينسيكِ الماضي سوى أن تخرجي مما أنتِ به. أرجوكِ استمعي لي ونفذي ما أقوله.

وعديني يا نبيلة أن تحافظي على نفسك دومًا.

أخوكِ الثاني / أنس

أخي وحبيبي أنس

مشتاقة لك كثيرًا يا غالي، لماذا لا تكتب لي وتحكي لي أخبارك، طمئني عليك يا أنس، سأحكي لك أنا.. تقدم لي شاب وسيم اسم على مسمى "جميل"، ويبدو من عينيه أنه يحبني.. رؤوف و افق ورغم مو افقته التي فرحتني بجميل فإنني أحسست أنه وجد فرصته للتخلص مني.. لا أبالي، إنها فرصة لي أنا أيضًا لأبعد عنه وأرتاح.. لن أسامح أنه لم يحارب ثروت لأعرف أيّ شيءٍ عن ولديّ، جميل يعرف أنني مطلقة لكني لم أقل له بعد أن عندي ابنين.. أخاف أن يظن أنني أرمي أبنائي وأجري خلف راحتي وسعادتي الفردية، رؤوف ونبيلة أيضًا لم يذكرا الأمر احترامًا لرغبتي... وبالطبع لم أذكر شيئًا عن تميز عائلتنا أو عن موهبتي، ليس خوفًا من رؤوف، ولكن خوفًا من خسارة جميل وقد أصبح خلاصي وطوق نجاتي من الحياة مع أخيك، لا أدري هل أرسل لك أحدًا أم لا بهذا الأمر، لقد تزوج رؤوف نبيلة منذ ثلاثة أشهر.. ربما لم أعد أرى لمعة الفرحة في عيني نبيلة كما الماضي معك، ولكني أرى "رؤوف" يعاملها جيدًا ويحبها جدًّا رغم أنها لا تحبه بنفس الدرجة، ولكن هناك إحساس بالامتنان والراحة معه، أنا لا أكره أخي كما تعلم، ولكني فقط أجد طبعه الجاد والحاد قليلًا لا يناسب نبيلة الرقيقة مرهفة المشاعر.

أختك المشتاقة لك / آمال

******

عزيزي أنس

لقد آلمتني بشدة رسالتك السابقة و إنكارك لمشاعرك ودفعي نحو أخيك ونحو معاملة رسمية عائلية.. لذا في رسالتي تلك سأقول كلّ ما بداخلي وستكون رسالتي الأخيرة لك، فالحب الكبير الذي كان سأطويه كما هو ولن أحرقه بكلمات ستخدش كبريائي إن أعدت قراءة الرسالة ثانيةً.. لقد أطعتك كعهدك بي وقبلت "رؤوف" وفاجأني قدر المشاعر التي يكنها لي وخبّأها احترامًا لك.. لقد تزوجته وهو يعاملني بمودة ورفق ولين ومحبة تفوق الوصف، وأشكرك على أنك نبهتني إليه فقد كنت لا أرى سواك والدنيا بها أكثر ليُرى... أنا حامل الآن وإن كان الجنين ولدًا سأسميه "صالح" وإن كانت بنتًا فستكون "زبيدة". أتمنى ألّا يطول سفرك لتتعرف على أبناء أخيك.

أختك الثانية / نبيلة

******

أخي وحبيبي أنس

مستاءة منك جدًّا يا أخي، ولم أكن سأكتب لك ما دمت توقفت عن الرد على رسائلي كلّ تلك المدة، لكن لأنك أخي حبيبي كتبت لك لتعرف آخر أخبارنا وما حدث لنا، أولًا أنا تزوجت "جميل" وعندي الآن سعد وحامل في توأم.. تعال لترى أبناء أخوتك وتتعرف أيضًا على جميل... رؤوف أصبح أصعب يا أنس... مثلما منعني من استخدام موهبتي منع نبيلة منعًا تامًا يصل للطلاق، وقال أنه يريد أن يبني أسرة طبيعية.. أصبحنا مجانين في نظر أخيك أو غير

طبيعيين وشيئًا أقرب للوحوش.. لقد نفّرني منه جدًّا... حين أنجب ابنه الأول رفض أن يسميه "صالح" مثلما نبيلة كانت تحلم وأسماه "حسن".. قال أنه لا يريد أيّ أسامي من أسامي عائلتنا، وللمفارقة وجدنا "حسن" يحرك الأشياء بعقله وبعض المهارات الأخرى.. هذا ليس غريبًا بالنسبة لعائلتنا، لكن الغريب أن "رؤوف" اتهم نبيلة أنها كانت... لا أستطيع قولها... هو قال أن "حسن" ابنك أنت.

حسن مولود بعد سبعة شهور وكان ضعيفًا لأن نبيلة كانت ضعيفة جدًّا، والأطباء قالوا أن الولادة المبكرة ستنقذه وتنقذها، لكن أخاك الأحمق نسي كلّ تلك التفاصيل أول ما عرف أن "حسن" يحرك الأشياء دون لمسها، فطرد "نبيلة" و"حسن" وهما الآن عندي، وحين هدأ شرط على نبيلة أن رجوعها يكون بدونه وهي منهارة ولا تعرف ماذا تفعل، لو كنت أستطيع لأبقيته عندي، لكن "جميل" لا يعرف سرنا، وربنا يستر حين يكبر سعد قليلًا لا يكون مميزًا مثلي ويكون كأبيه أو كرؤوف، لذا فحسن بقاؤه هنا مستحيل... أنا لا أعرف ما هو التصرف الصحيح.. دلني.

أختك الحائرة / آمال

أختي العزيزة آمال

أعتذر لك أولًا عن عدم إرسالي لك مسبقًا لعدم استقراري النفسي لأحكي أيّ شيء أو أكتب الكثير.. لقد كان الأمر عسيرًا عليّ في أثناء بحثي هنا عمن يساعدني أو عن الجامعات التي تدرس تلك العلوم... هنا يا صغيرتي ينكرون الأمر أيضًا وليس كما تخيلت ولكن بشدة أقل ومرونة أكثر وقدرة على التقبل. أخيرًا وجدت الجامعة وسأنتقل لأعيش بجوارها وسيكون هناك رقم هاتف لأتصل بك ونحكي بشكل أفضل عن الرسائل... سأرسل لكِ العنوان والرقم بمجرد استقراري هناك. مبارك لكِ ولنبيلة ولرؤوف الزواج والأولاد. أتمنى بشدة أن أراهم وأن أستطيع العودة مجددًا ولو مرة لزيارتكم ولكن الأمر صعب.

أما عن حسن فأرسليه لي وسأقوم بتنشئته هنا في جو أرحب حتى لو لم يكن ابني فيكفي أنه ابن أخي و ابن نبيلة، واجعليها تعود لبيتها فرؤوف يحبها وهي ستحبه أكيد.

أخوك المحب لكِ دومًا / أنس

تمت

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017